

صالح الكيّالي

الرسالة الكيّالية

اَلشَّيخ إِسمَاعِيل الكَيَّالِي الرِّفَاعِي

اَلوَلِيّ العَارِف بِاَللَّه

قَدسَ اللَّه سِرَّه

573 - 685 هـ

1177 - 1286 م

أعاد تنضيدها



1445هـ - 2023 م

المقدمة

منذ أكثر من عشرين عاماً، وأنا أعمل على تحضير بحث يتعلق بمنشأ الأسرة الكيّالية، وأعددت عدداً من المراجع والمستندات، فكنت أكتب تارة مستقصياً ومحققاً لما استطعت الحصول عليه، ثم تشغلني أعمالي القضائية الكثيرة، فأترك العمل ردحاً من الزمن، وأعود لمتابعة ما انقطع. وقد حصل لديّ منهج بحث يرافقه كتاب كبير، يمل القارئ قراءته. فعمدت إلى اختصار وحذف كثير من المواضيع، وأبقيت على خلاصة أعتقد أنها تفي بالغرض ويجد القارئ سهولة في قراءتها. ومع ذلك فقدت أشرت بلمحات وجيزة لعلم التصوف لما اقتضاه البحث، وضربت صفحاً عن عدد كبير من الكرامات الخاصة بالأولياء، حيث جمع علماء كثيرون منها في كتب متعددة.

كما أشرت بشكل وجيز للحياة العامة والخاصة التي عاشها، وليّ الله جدنا الشيخ إسماعيل، قدس سره، منذ ولادته ونشأته وتفقهه في الدين وتصوفه، حينما كان في (أم عبيدة)، ثم إثر استقراره في قريته (الترنبا) حيث ظهرت له أنوار بارقة، وكرامات وأحوال خارقة.

وبحثت بشكل وجيز في البيئة التاريخية والجغرافية التي رافقت حياته، والصراعات الدموية في ذلك العهد، لتقف على شيء من الحقيقة التي قصدها شقيقه نجم الدين أحمد الأخضر حينما أذن له بالترحال إلى الديار الحلبية، والسبب الدافع، لاستقراره في قرية (الترنبا) إثر زيارته لابن عمه عز الدين أحمد الصياد في قرية (متكين).

ورغم قلة المراجع، بل وندرتها، والتي أشارت إلى الجد إسماعيل، قدس سره، والتحري الدقيق عن الرسالة التي كتبها، قاضي قضاة حلب زين الدين الخليلي، والتي سماها: **تحفة الذهب في رحلة الشيخ إسماعيل الكيالي إلى حلب**، فلم

أعثر عليها. ولا ندري شيئاً عن ظروفها ودواعيها، ومن الذي هيأ لها ومَهّد أسبابها، والمواضيع التي بُحثت فيها، والعلماء الذين ساهموا بالمشاركة في مناظرتها، والنتائج التي اقترنت بها. إذ ربما كانت تلقي ضوءاً على حياته الخاصة والعامة في مرحلة شيخوخته.

ومع اعترافي بتقصيري في عدم إيفاء هذا الجدّ الجليل حقّه، وهو العارف بالله صاحب كرامة الكيل التي لم يسبقه إليها أحد قبله، ولم يأت بمثلها أحد بعده.

كما لم يسبق - على علمي - أن بحث أحد قبلي في مثل هذه الدراسة المتواضعة، والتي سميتها "الرسالة الكيالية" تخليداً لذكراه، فيضمني تحت لوائه وأكون خادماً له ولجده سيد المرسلين.

والله الكريم أسأل، وبجاه خير خلقه، نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أتوسل، أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم وسبباً للفوز في جنات النعيم. وأعوذ بالله العظيم، من شرّ حسود متعسّف، ومتعصب غير منصف أن يبادر بالانتقاد والانكار، وأن يقبل مني الاعتذار.

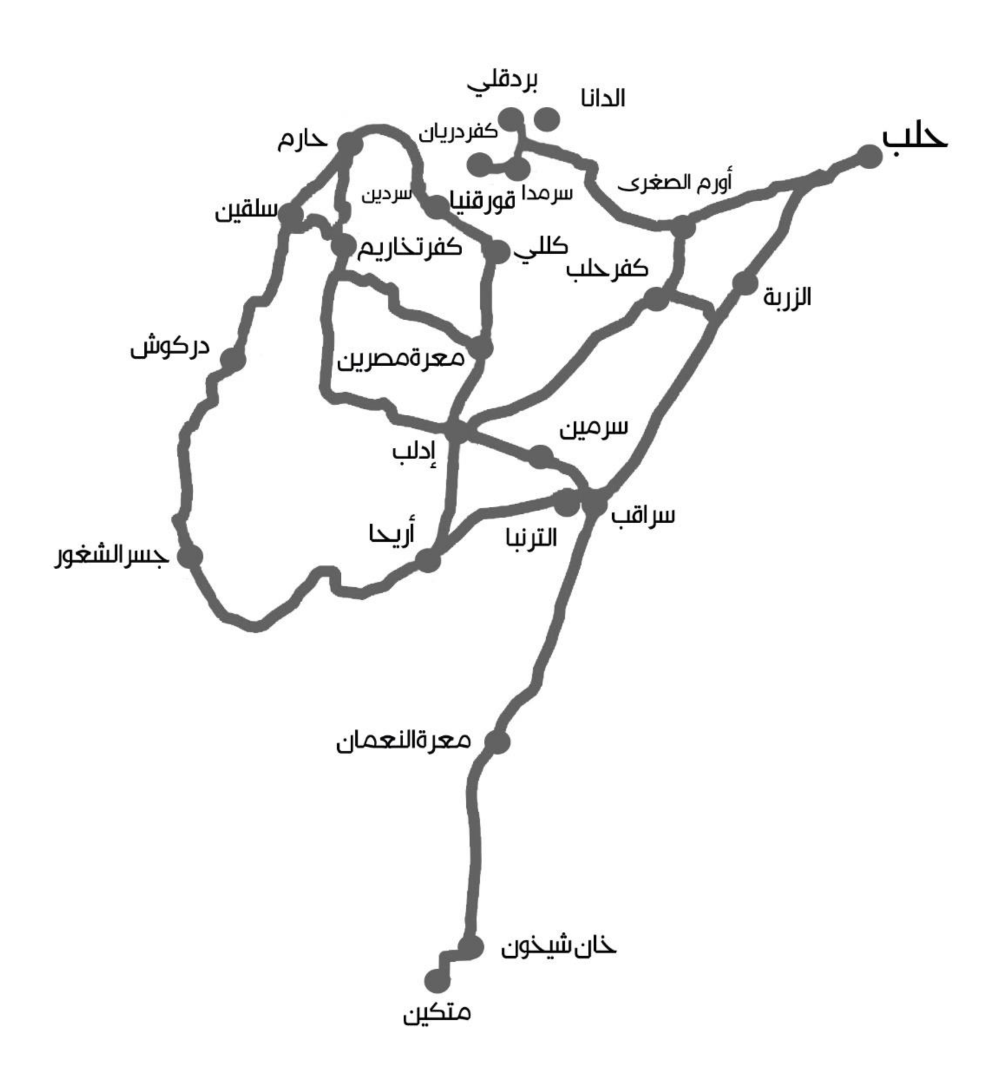
اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً، وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلاً، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم.

حلب في 1414/11/29هـ - 1994/5/10م

المفتقر إلى عفو ربه تعالى

محمد صالح الكيالي بن محمد شعيب

القاضي المتقاعد عن وظيفة المحامي العام الأول في محافظة حلب



خريطة للأماكن والبلدات المذكورة بالرسالة

الفصل الأول

عرض تاريخي

الأسباب البعيدة والقريبة لتأليف كتاب بهجة الحضرتين في آل الإمام أبي العلمين والحاشية عليه

شجرة الأسرة الكيالية الرفاعية الموثقة حسب القانون

إن أول شجرة كبيرة جمعت أفراد الأسرة الكيالية، هي الشجرة المؤرخة عام (640هـ - 1242م)، والتي نُقلت عنها الشجرة الجامعة لأفراد الأسرة، في عام (936 هـ - 1529م)، وهي المحفوظة بأيدينا من ذلك العهد إلى اليوم.

وتأسيسا عليها نقلت شجرات متعددة النسخ بإدلب سنة (1312هـ - 1894م)، المذيلة بإلحاق الفروع المستجدة الجامعة لأكثر فروع الأسرة الكيالية في الديار الشامية والحلبية، والمصدقة قديماً وحديثاً، من قبل القضاة والنقباء والأمراء والمفتين ومن سواهم من أهل العلم والتحقيق، والمسجلة في سجل القاضي الشرعي في إدلب الأستاذ صالح أفندي الصوفي اللاذقي في غرة محرم الحرام سنة (1316 هـ - 1898م) تحت رقم 117، بموجب الإشارة السامية الصادرة عن مقام المشيخة الاسلامية، والمذيلة أيضاً بالضبطة المسجلة صورتها في دائرة العسكرية والنفوس، الحاوية على فروع السادة الكيالية: سكان حلب وإدلب، وتوابعهما، ليعمل بمقتضاها في استثناء هذه العائلة الشريفة، من الخدمة العسكرية حسب منطوق الإرادة السنية السلطانية العامة الصادرة في سنة (1313 هـ - 1895م) والمسجلة صورتها في سجل قاضي إدلب السابق الأستاذ

الشيخ نوري أفندي الريحاوي تحت رقم: عدد (112) بتاريخ سنة : 1312هـ - 1903م. (حاشية بهجة الحضرتين صفحة 26 و 69).

طبقات السادة الرفاعية:

إن جدنا القطب الجليل الشيخ إسماعيل - قدس سرّه - من الأسرة الرفاعية واشتهر بالكيالي، بعد كرامة الكيل، ففي أوائل شهر رمضان المعظم سنة: (1306 هـ - 1888م)، طبع الشيخ محمد أبو الهدى الصيادي كتابه: **تنوير الأبصار في طبقات السادة الرفاعية الأخيار**، بمطبعة محمد أفندي مصطفى بمصر، مبتدئاً من الإمام المقدم والغوث الأعظم الممتاز بتقبيل يد النبي محمد صلى الله عليه وسلم، سيدنا ومولانا السيد أحمد الرفاعي، ثم بطبقات الأسرة الرفاعية.

وتعرض للسادة الكيالية، حين بحثه عن السيدة فاطمة بنت السيد أحمد الرفاعي وذكر أن السيد أحمد الرفاعي، قد زوجها بابن أخته وابن ابن عمه، شيخ وقته قطب الزمان وليّ الرحمن (علي) مهذب الدولة ابن عثمان، وحَجب جدنا القطب إسماعيل عن أمه (فاطمة) وألحقه (بنفيسة) الزوجة الثانية (لعلي) مهذب الدولة، إثر موت (فاطمة)، مع أن (فاطمة) أعقبت له ثلاثة أولاد ذكوراً، وبنتاً واحدة وهم: أبو اسحاق السيد إبراهيم الأعزب، والسيد نجم الدين أحمد الأخضر ، والسيد الشيخ إسماعيل المعروف بالكيال (دفين قرية الترنبا) من أعمال ادلب ، والسيدة خديجة. وتوفيت أمهم ولم تخلف غيرهم. فتزوج (علي) مهذب الدولة، بعدها، بالسيدة نفيسة، بنت محمد بن القاسمية، وأعقبت له أولاداً، (وهذا هو الصحيح).

إلا أن ابا الهدى الصيادي، ذكر في مؤلفه تنوير الأبصار، أن جدنا الشيخ إسماعيل، هو من زوجته (نفيسة القاسمية)، وليس بابن للسيدة فاطمة بنت أبي العلمين السيد أحمد الرفاعي، نقلا عن كتب لم يشر إليها، ولا إلى مصادرها. ولم يطلع

على الشجرة الأصلية الرفاعية التي نقلها صاحب روح الإكسير، الشيخ حسن الواسطي، وكتاب النفحة المسكية، للإمام عز الدين أحمد الفاروثي الواسطي، وقد أشار كل من مؤلفيهما، الواسطي والفاروثي، إلى أن السيدة (فاطمة) والدة القطب جدنا إسماعيل قد توفيت وعمر جدنا سنتان، فربته مع أخته خديجة والتي كان عمرها سنة واحدة، السيدة نفيسة زوجة أبيهما، وكثيراً ما يقولان لها يا أماه. ولذلك وقع أكثر المؤرخين في الظن خطأ، بأنهما ولدا نفيسة المذكورة.

تصحيح الخطأ وظروفه

في عام: (1311هـ - 1893م)، سافر الشيخ الأستاذ محمد طاهر بن الشيخ عبد القادر المنلّا الكيالي الرفاعي، خادم السجادة العلية الصيادية الرفاعية بإدلب ونقيب أشرافها فيما بعد، إلى استنبول. واجتمع مع الشيخ أبي الهدى الصيادي في ثلاثة بقين من شهر ربيع الثاني سنة (1311هـ)، وكان قد نظم الشيخ أبي الهدى، قصيدة في مدح شيخه: محمد مهدي الرواس الصيادي الرفاعي الشيوخي البصري، ويبدو أن أبا الهدى، طلب من الأستاذ الشيخ طاهر شرح القصيدة والتي يقول فيها:

لي في العراق إمام ضاء فرقده	ومهبط الملأ العلوي مرقده
أتى لتجديد أمر الدين منتهضاً	فليهنأِ الدين وافاه مجدده
نعم هو السيد المهدي والأسد الحبر	الذي ضم بحر العلم مشهده
أقامه بيد الإحسان عن مدده	لنصرة الشرع في الدنيا محمده
فالمصطفى روح هذا الكون مسعفه	والله عز اسمه فضلا مؤيده
وهمة ابن الرفاعي الإمام إلى	مراتب المدد الدوار تصعده
اهدت له توبة لا تنقضي ابداً	تقيمه في معاليها وتقعده

طريقه الحق معليه محمده … وبابه لرسول الله احمده

أنعم به من إمام سيد سند … مدت له من ضريح المصطفى يده

جاء الإمام بهاء الدين عنه لنا … بمنهج يدرك الأشقى ويسعده

محجب شمسه في العالمين جلت … طريق دين أولو الألباب ترصده

لاذت به أولياء الله فاكتسبت … فضلا وطابت بكاس طاب مورده

لم يخش ضيما ولم يعثر بمزلفة … فتى إمام الهدى المهدي مرشده

شيخ الطريق الذي يرضى الإله به … رئيس ديوان أهل الله سيده

رقت معانيه للألباب فهو اذاً … في جفن باصرة العرفان اثمده

ذوى عن الكل غير الل همته … فالله في سائر الأحوال مقصده

روحي فداء تراب مس أخمصه … كواكب العالم العلوي تحسده

نظمت شعري درّاً في مدائحه … يهدى لعلياه غاليه وجيده

يهتز من طرب في الله سامعه … ويفرغ العطر في الأكوان منشده

ويستميل الجبال الشم وارده … معنى ويحلو لذي العليا تردده

يرصع الأفق مرفوعا زبرجده … وفي التدلي يزين الأرض عسجده

أقام للشرع ركنا في القلوب سمت … إلى سموات علم الله أعمده

ومزق الغي والبهتان حين جلا … نهجا ملائكة الرحمن تحمده

إني له عبد رق لا أميل إلى … عتق وكافل أمر العبد سيده

لازال مهبط نور القدس مشهده … دهراً وباصرة الأكوان تشهده

ولا عدا الغيث قبرا ضم أعظمه   يأتيه بالرحمة العظمى ويرفده

ما صح عنه حديث الفضل متصلا   بجده خير خلق الله مسنده

ورأى الأستاذ الشيخ طاهر الفرصة مناسبة، فضمن الشرح الردّ على الخطأ الذي وقع فيه أبو الهدى، من كون السيد إسماعيل جدنا هو ابن نفيسة القاسمية بدلاً من كونه ابن (فاطمة) ذات النور بنت القطب أحمد الرفاعي الكبير، وذلك بإسلوب لطيف وعبارات رقيقة جداً، بعيدة عن الغمز واللمز، بل أبدع حينما قال: وقد علمت أن ذلك وهم وقع فيه بعض المؤرخين المتقدمين، وحاشا لله أن يكون السيد السند نسّابة الزمان وحبل العرفان، شيخنا الناظم مطلعاً على كتاب روح الإكسير وينقل خلافه. وبالجملة فالسهو جائز حتى على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وفي عام 1317هـ - 1899م، طبع الأستاذ الشيخ طاهر المنلا الكيالي، شرح القصيدة المشار إليها، في مصر [1]، وأطّلع ابو الهدى الصيادي على ماورد فيها، فعمد إلى تصحيح الخطأ في كتابه: بهجة الحضرتين.

كتاب بهجة الحضرتين في آل الإمام أبي العلمين

وفي عام 1323هـ - 1905م كتب أبو الهدى رسالة في أصول البيت الأحمدي أي في أصول القطب السيد أحمد الرفاعي الكبير و فروعه، وأشار في مقدمتها بما يلي: وقد سألني بعض أعيان السادة الأحمدية، فضلاء القادة الرفاعية أن أكتب رسالة ألخص فيها أصول البيت الأحمدي الأطهر، ليعرف أن يلحق كل فرع بأصله الأنور، فإن فروع البيت الرفاعي قد كثرت، ونجوم أفراده في سماء الشرف الفاطمي قد ازدانت وازدهرت، فأجبته خدمة لذلك البيت المعمور والشرف

---

[1] الفريدة الدرية شرح القصيدة الهدائية، صفحة 68، للفقيه العلامة المرحوم الأستاذ الشيخ محمد طاهر الكيالي الرفاعي الادلبي شيخ السجادة الصيادية بإدلب ونقيب أشرافها ومدرسها العام والخاص، طبع المطبعة المصرية بالإسكندرية سنة 1317 هـ. وهذا الكتاب مسجل في المكتبة الوطنية في حلب برقم 8280 و8538.

الطاهر المبرور وكتبت هذه الرسالة النيرة البهية والقلادة السنية الجوهرية وسميتها (بهجة الحضرتين في آل الإمام أبي العلمين) أسال الله أن يجعلها عصام كمال لينتفع بها كل محب للآل وكفى بالله ولياً..

ويقول في نهاية الرسالة: وإلى هنا انتهى بنا القلم فيما اوردناه وتمت بقلم مؤلفها عفي عنه في اليوم السادس من شهر رجب من السنة الثالثة والعشرين والثلاثمائة والالف من الهجرة النبوية على صاحبها أتم الصلاة والتحية.

1323 هـ، وبتوقيع: أبو الهدى. (صفحة 66، طبع مطبعة النهضة العربية في حلب، والناشر عبد الودود الكيالي، ولم يذكر تاريخ الطبع).

الاعتذار عن الخطأ

وقصد أبو الهدى من رسالته هذه، الاعتذار عن الخطأ الذي وقع فيه بنسبة جدنا إسماعيل، قدس سره، إلى نفيسة دون أمه الحقيقية فاطمة بنت القطب السيد أحمد الرفاعي حيث يقول: وقد وقفت على عدة كتب لم أكن قد رأيتها من قبل، منها: روح الإكسير للإمام المجمع على فضله الشيخ أبي الحسن الواسطي، وعقود اللآلي للإمام أبي بكر الانصاري، وكلها ترجمت القطب السيد إسماعيل الكيالي الرفاعي الكبير، وذكرت نسبه الشريف من طريق أبيه السيد العظيم المقام علي مهذب الدولة الرفاعي إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وصرح سيدنا الجد الأمجد السيد شمس الدين محمد الصيادي الرفاعي: بأن السيد إسماعيل الكيال الكبير، والسيد نجم الدين أحمد، والسيد إبراهيم الاعزب هم أولاد السيدة (فاطمة) ذات النور بنت الغوث الاكبر السيد أحمد الرفاعي، رضي الله عنهم أجمعين. وقد وافق كل ما وقفت عليه من الأسانيد الشريفة والكتب المنيفة التي تطابق المتواتر المشهور، في أمر النسب العالي، الكيالي واتصاله بالإمام الرفاعي، لما كنت قد حررته وجنحت إليه وقلت به في تنوير

الأبصار، بعد الأخذ والرد، مع من لم أذكر اسمه، فإنه غلط بنفسه، وأدخل بكثرة أقواله العارية عن العلم، عليَّ، بل على نفس النسب المشار إليه الغلط.

تقريظ الشيخ كامل آل محي الدين الكيالي الرفاعي الادلبي صاحب (الحاشية) على كتاب (بهجة الحضرتين)، كما هو وارد ومحرر على نسخة المؤلف الأصلية:

وقد اطلّعَ السادة الكيالية على (بهجة الحضرتين) قبل طبعها، حيث قرّظها الشيخ كامل الكيالي الادلبي، بقصيدة من (25) بيتاً، جاء في مطلعها:

ذا كتاب قد تسامى بالبهَا شمس النهار

وأشار فيها إلى اعتذار أبي الهدى بقوله:

موضحاً مشكل سهو حطه بالاضطرار

مذعناً للحق جهرا وإلى الحق يصار

وجلا الغامض فيها مع بديع الاختصار

وعن (التنوير) فيها قال أبدي الاعتذار

فغدت دوحة مجدٍ أينعت فيها الثمار

ويشير الشيخ كامل إلى تاريخ نسخها، وليس لتاريخ طباعتها، لأن النسخ في اللغة النقل، ونسخ الكتاب: نقله واكتتبه حرفاً بحرف.

ولهذا يشير بقوله:

قلت لما تّم نسخاً بيراع الاعتبار

تزدهي (البهجة) لرخ أبدأ بالافتخار

سنة 1323هـ - 1905م

التصديق على (البهجة) وتسجيلها في المحاكم الشرعية

ولكي تكتسب (البهجة) الصفة الشرعية والقانونية، تبعاً للتشريع المعمول به، في زمن الحكومة العثمانية فقد تمت الاجراءات القانونية التالية:

أولا - تصديق قاضي شرعي إدلب السيد محمد عطاء الله الدردري الدمشقي، النائب الشرعي مركز قضاء إدلب، في غرة ربيع الأول الانور عام 1326هـ - 1908م (صفحة 69 و70، البهجة).

ثانيا - تصديق قاضي شرعي إدلب: السيد ذو الفقار، على نسب السبط الأشهر الشيخ إسماعيل الكيال، في غرة محرم الحرام سنة: 1332 هـ -1913م. (صفحة 71).

طباعة بهجة الحضرتين والحاشية عليها

اجتمع ثلاثة من كبار أساتذة ومشايخ الأسرة الكيالية، في العشر الأخير من ربيع الأول الأنور، عام: 1341هـ - 1922م، في حجرة مدير المدرسة الخسروية في حلب، وهم السادة الأفاضل الأجلاء: عبد الحميد الطيار الكيالي (ومفتي حلب بعدئذ) واسحاق الجوادي الكيالي وكامل الكيالي الإدلبي، وكلّفوا الشيخ كامل، بوضع حاشية على كتاب البهجة تتمة للفروع الجديدة من الأسرة الكيالية، والتي لم يُشر إليها، في شجرات الأسرة القديمة. وقد أوضح القصد من الحاشية بقوله: إني لم أقصد في هذه الحاشية المختصرة إظهار المجد والشرف تباهياً وافتخاراً، إنما قصدت بها أن تكون سبباً لتعارف الناشئة الجديدة، وداعياً لصلة الرحم المطلوب شرعاً، تبركاً وتيمناً بقوله صلى الله عليه وسلم: تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر ... إلى أن قال: وهذا ما تيسر لي جمعه على هذه النية، وإنما الأعمال بالنيات، تحريراً في غاية ربيع الأول الأنور عام 13141هـ - 1922م.

وبعد مراجعته من قبل الجميع، تكفل بطبعه الشيخ الأستاذ عبد الودود الكيالي صاحب المكتبة العصرية في حلب، وتمت الطباعة في مطبعة النهضة العربية في حلب، عام: 1342 هـ - 1923م، على الارجح، لأنه لم يذكر في الكتاب المطبوع تاريخ الطبع (صفحة 54، البهجة).

لقد حفظ لنا هؤلاء السادة الأجلاء الأفاضل نسبنا مطبوعاً، وقد مضى على طباعته سبعون عاماً ونيف، وقد تكاثرت أعداد كبيرة من الأسرة الكيالية وقام بعضهم، مشكورين في إعادة طباعة النسب بأكمله وتوزيعه، مع اضافة الفروع الجديدة على أصول (الشجرة) القديمة، في ذكر الأصول والفروع.

دراسة جديدة للنسب على طريقة الطبقات

وقد قام بهذه الدراسة الجديدة للنسب، ابن عمنا الأستاذ زهير بن عبد الودود الكيالي، متبعاً طريقة حسابية دقيقة، حيث حقق في صحة الانساب والقرابات والفروع الجامعة للأسرة الكيالية في الديار الحلبية، مستنداً إلى وثائق يعود تاريخها إلى مائة عام أو أكثر. إثر جهود عدة سنين في التحقيق والتدقيق وأثبتها في رَقُم، بحيث يتألف الرقم الواحد، من مقطع أو اكثر. وقد يشتمل الفرع الواحد على جزء من مقطع أو أكثر، حسب عدد أفراد الذرية.

وأنجز الرقيم الاول، في شهر رمضان عام 1413 هـ، ويتضمن الفروع التي ثبتت له أصولها، والمذكورة في (البهجة). ويتابع انجاز ما تبقى.

جزاه الله عنا خير الجزاء، وبارك الله فيه، وله الشكر الجزيل على ما قدمه وسعى إليه.

الفصل الثاني

علم الأنساب

النَّسَبُ: نَسَبُ القَراباتِ، وَهُوَ واحدُ الأَنْساب، والنِّسْبةُ والنُّسْبَةُ والنَّسَبُ: القَرابةُ؛ وَقِيلَ :هُوَ فِي الْآبَاءِ خاصَّةً. وناسبه مناسبة: ماثله وشاكله ولايمه: شاركه في النسب وكان قريبه. وانْتَسَبَ واسْتَنْسَبَ :ذَكَرَ نَسَبه .ويُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذا سُئِلَ عَنْ نَسَبه: اسْتَنْسِبْ لَنَا أَي انْتَسِبْ لَنَا حَتَّى نَعْرفَك. ونَسَبْتُ فُلاناً إِلى أَبيه أَنْسُبه وأَنْسِبُهُ نَسْباً إِذا رَفَعْتَ فِي نَسَبه إِلى جَدِّه الأَكبر [2].

والنسب إما على عمود النسب وهو ما كان بين الآباء والأبناء، وإما ما كان بين الإخوة وبني الأعمام، واصطلح بعضهم تسمية الأول (النسب بالطول) وتسمية الثاني (النسب بالعرض).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر.

والرحم: الرحمة والرقة والتعطف. والرحمة عند العرب: رقة القلب وعطفه، ورحمة الله: عطفه، وإحسانه ورزقه. وذوو الرحم هم الأقارب، ويقع على كل من يجمع بينك وبينه نسب [3].

وفي الحديث: إن الرحم شِجنةٌ [4] معلّقة بالعرش تقول: اللهم صل من وصلني واقطع من قطعني. والمقصود بصلة الرحم أن يراعي المرء حرمة القرابة بالتودد إلى الأقارب وأن يحب الخير لهم وبعطف عليهم ويساعد المحتاجين منهم ويأخذ

---

[2] لسان العرب ابن منظور. صفحة 755 طبع دار صادر - بيروت، عام 1375 هـ - 1956م.

[3] بن الاثير، ولسان العرب. صفحة 223.

[4] شجّنة الرحم المشتبكة: قال أبو عبيدة: يعني قرابة من الله مشتبكة كاشتباك العروق. وأصل الشجنة بالكسر والضم: شعبة من غصن من غصون الشجرة. وقيل الشجنة الصهر. ابن منطور صفحة 223.

بأيديهم في الملمات ويتفقدهم ويزورهم بعياده مرضاهم وتشييع جنائزهم، ويسأل عنهم حين غيابهم ويهتم بستر مساويهم ويتجاوز عن سيئاتهم ويساعدهم بكل ما تيسر من الوجوه الخيرية من غير قصد المكافأة حتى لو حصلت القطيعة من جانبهم. فالصلة هي أن تصل من قطعك، وتعطي من منعك، ممن جمعك وإياه جامعة رحم، وليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي قطعت رحمه فوصلها.

وليس علم الانساب [5] وقفاً على المسلمين والشرقيين فحسب، بل اهتمت الأمم الغربية على اختلاف طبقات مجتمعاتها بتدوين أفراد أسرها مشجرة، وكثير منها من يفاخر بحسبه ونسبه. وحفظاً للنسب من الضياع، أو التدليس أو التزوير فيه، فقد وضعت تشريعات حفظت الحقوق لأصحابها من مثل هذه الأفعال صيانة لها من الدخلاء والغرباء.

وأصبح هذا العلم في عصرنا الحاضر ونحن على أبواب القرن الخامس عشر الهجري والحادي والعشرين الميلادي، علماً فنياً تطبيقياً بقوم على أسس سليمة في الإحصاء حيث نقل إلى عالم الكمبيوتر وأضحى من يريد معرفة درجة القرابة أن يضغط على زر من أزرار هذه الآلة ليظفر بالمراد.

وجوب معرفة علم الأنساب

وجب معرفة علم الأنساب بما ورد في القرآن الكريم وفي السنة الشريفة. قال الله تبارك وتعالى في التنزيل العزيز: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ [6]، وقال رسول الله

---

[5] ويسمى باللغة الفرنسية La Généalogie وباللغة الانكليزية Genealogy وقد جاء في معجم La Rousse الفرنسي تعريف هذا العلم، ما تعريبه: علم غايته التحري عن أصل الأسر وفروعها ودرجات القرابة بينها. طبعة 1993 صفحة 475.

[6] سورة الحجرات الآية 10.

صلى الله عليه وسلم: مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

وقال صلى الله عليه وسلم: والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

وعلى ما تقدم فقد ربط الاسلام المسلمين برباط الأخوة، وبيّن أن للمسلم على المسلم حقوقاً ذكرها الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، في الحديث الشريف: حق للمسلم على المسلم خمس: رد السلام، عيادة المريض، اتباع الجنائز، إجابة الدعوة، تشميت العاطس.

وخص الاسلام حقوق الرحم: مادية ومعنوية. فالمادية هي: النفقة عليهم في حالة فقرهم ومدّ يد المعونة إليهم. والمعنوية هي: عيادتهم إذا مرضوا، زيارتهم في الأعياد والمواسم الدينية والدنيوية، وتفقد أحوالهم وإسداء النصح لهم، وأن يحفظهم في الغيب ويتواضع لهم ويصون عرضهم ومالهم ويواسيهم إذا أصيبوا ويشاركهم في المسرات.

فإذا كان هنا رباط الأخوة العام بين المسلمين، فكيف بمن يجمعهم نسب واحد، وأصل واحد، وهو رباط الأخوة الخاص. وعلى هذا الأساس من التعاون المادي والمعنوي، وجب معرفة علم الانساب.

صلة الرحم في القرآن الكريم والأحاديث النبوية

قال تعالى في كتابه العزيز: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ [7].

---

[7] سورة محمد الآية 22 و23.

وجاء في التنزيل العزيز: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ [8].

وقال تبارك وتعالى في النهي عن الطعن في الأنساب الثابتة، في ظاهر الشرع: وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا[9].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: من سره أن يُبسط له في رزقه، وينسأ [10] له في أثره، فليصل رحمه. وقال عليه الصلاة والسلام: اثنان في الناس هما بهم كفر، الطعن في النسب، والنياحة على الميت.

فائدة علم النسب

لا يخفى أن المعرفة بعلم الأنساب من الأمور المطلوبة لما يرتب عليها من الأحكام الشرعية والمعارف الدينية وفوائد هذا العلم كثيرة، منها العلم بنسب النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الهاشمي القرشي ولد بمكة المكرمة وهاجر إلى المدينة المنورة. والوقوف على معرفة أبيه وأمه وذريته، ولا يعذر مسلم في جهله ذلك.

ومنها التعارف بين الناس، حتى لا ينتمي أحد إلى غير آبائه ولا ينتسب إلى سوى أجداده، وقد جاء في التنزيل العزيز قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)، وقد ورد في تفسير الإمامين: خلقناكم من ذكر وأنثى: آدم وحواء، وجعلناكم شعوباً، جمع شَعب، بفتح الشين وهو أعلى طبقات النسب.

---

[8] سورة الحجرات الآية 13.

[9] سورة الإسراء الآية 36.

[10] أنسأ الشيء: أخّره. ويُقال أنسأ الله أجله وفي أجله، أي أخّره. المنجد صفحة 910 للبستاني، طبع المطبعة الكاثوليكية بيروت 1941.

وقبائل: هي دون الشعوب، وبعدها العمائر، ثم البطون ثم الأفخاذ، ثم الفصائل آخرها. مثاله: خذيمة: شعب، كنانة: قبيلة، قريش: عمارة، قصي: بطن، هاشم: فخذ، العباس: فصيلة.

لتعارفوا: حذف منه إحدى التاءين، ليعرف بعضكم بعضاً، لا لتفاخروا بعلو النسب، وإنما الفخر بالتقوى[11]. ومن فوائده أيضا معرفة أحكام الإرث وأبواب الحجب ومعرفة كذلك أحكام الأولياء في النكاح فيقدم بعضهم على بعض. وكذلك في معرفة أحكام الوقف إذا خص الواقف بعض الأقارب، أو بعض الطبقات دون بعض، ومنها مراعاة النسب الشريف في المرأة المتزوجة وهو ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم: لا تنكح المرأة إلا لأربع: لدينها وحسبها ومالها وجماها. فراعى صلى الله عليه وسلم في المرأة الحسب والشرف في الآباء.

ويقوم المجتمع على علم الأنساب، لما له من فوائد كثيرة، ولولا معرفة الأنساب لغاب إدراك كثير من الأمور الدينية والدنيوية وتعذر الوصول إلى معرفة بعض الأحكام الشرعية.

ولا يخفى أن النسب إما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الارحام حتى تقع المناصرة. ونفعه إنما هو في هذه الوصلة والالتحام وما فوق ذلك مستغنى عنه. إذ النسب أمر وهمي لا حقيقة له، فاذا كان ظاهراً واضحاً حمل النفوس على طبيعتها من النعرة وإذا كان غير واضح وإنما يستفاد من الخبر البعيد ضعف فيه الوهم وذهبت فائدته وصار الشغل به مجاناً ومن أعمال اللهو المنهي عنه. ومن هذا الاعتبار قولهم النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر، بمعنى أن النسب إذا خرج عن الوضوح وصار من قبيل العلوم ذهبت فائدة الوهم فيه عن النفس

[11] سورة الحجرات الآية 13. تفسير الإمامين جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، طبع المطبعة الأدبية، ميدان الازهر، مصر، لم يذكر تاريخ الطبع.

وانتفت النعرة التي تحمل عليها العصبية فلا منفعة فيه حينئذ، والله سبحانه وتعالى أعلم[12].

ومما ورد في أقوال القطب الغوث أحمد الرفاعي: وبويعت في الحضرة على عدم النظر إلى الآباء والأجداد، فإن المفاخرة بهم من طباع أهل الشرك والغلو بهم من بقايا نخوة الجاهلية. ومن طلب الحق علت همته عن التقيد بأب وأم وخال وعم.

وعدم النظر إلى الآباء والأجداد لا يفيد عدم برهم وحبهم وإعظام شأنهم كما أراد الله تعالى لهم، بل نحسن معرفة حقوقهم مأمورون وعلى أدائها مأجورون وبترك التفاخر بهم مكلفون[13].

[12] مقدمة ابن خلدون، صفحة 153، طبع مطبعة المعارف المصرية العلمية، لم يذكر تاريخ الطبع.

[13] الفريدة الدرية شرح القصيدة الهدائية، صفحة 68، للفقيه العلامة المرحوم الأستاذ الشيخ محمد طاهر الكيالي الرفاعي الادلبي شيخ السجادة الصيادية بإدلب ونقيب أشرافها ومدرسها العام والخاص، طبع المطبعة المصرية بالإسكندرية سنة 1317 هـ. وهذا الكتاب مسجل في المكتبة الوطنية في حلب برقم 8280 و8538.

الفصل الثالث

الوليّ إسماعيل الكيالي الرفاعي

اسمه وكنيته: إسماعيل الرفاعي.

شهرته: اشتهر بالكيالي بعد كرامة الكيل.

ولادته: ولد في أم عبيدة، يوم الجمعة الثامن عشر من ربيع الأول سنة 573هـ بحياة جده لأمه السيد أحمد الرفاعي الكبير. وبزمن الخليفة المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد بالله.

نسبه لأبيه: والده السيد علي، ولقب تكريمه: علي مهذب الدولة[14].

نسبه لأمه: والدته: السيدة فاطمة ذات النور [15] بنت القطب السيد أحمد الرفاعي الكبير، توفيت وعمره سنتان. وهو الولد الثالث منها قبل أخته خديجة. وبعد وفاتها تزوج والده السيدة نفيسة بنت محمد بن القاسمية.

نسبه لأجداده: السادة: إسماعيل بن علي بن سيف الدين عثمان بن حسن بن محمد عسلة بن علي الحازم بن أحمد بن علي بن رفاعة الحسن المكي (نزيل اشبيلية بالمغرب) بن المهدي بن أبي القاسم محمد بن أبي الحسن (رئيس بغداد) بن الحسين عبد الرحمن الرضي المحدث بن أحمد الصالح الأكبر بن موسى الثاني أبي سبحة بن إبراهيم المرتضى بن الإمام موسى الكاظم بن الإمام

---

[14] مهذب الدولة: لقب تطلقه الدولة العباسية وتتحفه للسادة الرفاعية، يمتاز بها منهم القائم على سجادة الارشاد في أم عبيدة بعد الإمام الرفاعي الكبير، وبقيت هذه العادة إلى انفراط عقدهم من بغداد وكذلك لقب: مهد الدولة.

[15] فاطمة بنت القطب أحمد الرفاعي زوّجها أبوها بابن أخته وابن ابن عمه: علي مهذب الدولة فأعقبت له ثلاثة أولاد ذكوراً وبنتاً واحدة، وهم ابراهيم الأعزب ونجم الدين الأخضر وإسماعيل (المعروف بالكيال) دفين الترنبا، وخديجة. وزينب بنت القطب أحمد الرفاعي زوّجها أبوها بابن أخته وابن ابن عمه: عبد الرحيم (مهد الدولة). الفريدة الدرية صفحة 38.

جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام زين العابدين علي بن الإمام الحسين السبط بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

مذهبه: المذهب الشافعي.

طريقته: الطريقة الأحمدية الرفاعية.

مباركة جده: لما ولد جدنا إسماعيل، أتى به والده إلى حضرة جده، الغوث الرفاعي، فدعا له، ونفخ في فمه، وقال له: نور جذبك يفيض على أهل المشرق والمغرب، الهم بارك فيه وفي ذريته.

كرامته: كرامة الكيل.

مناقبه: كثيرة، وسنأتي على ذكر بعضها.

زواجه: تزوج وأعقب عدة أولاد، والمعقبون منهم أربعة، السادة: أحمد وعمر وعلي وصالح. ولهم ذراري كبيرة. أما أحمد أكبر أولاده فقد ساح على قدم التجريد وطاف عراق العجم ثم انتهى إلى بلخ [16] وأقام بها، ونشر الطريقة العلية الأحمدية، وتزوج بها، وأعقب أولاداً، وتوفي فيها، وله ضريح عظيم يُزار ويُتبرك به.

---

[16] مدينة بلخ: تقع في مستو من الأرض وبينها وبين أقرب جبل إليها أربعة فراسخ، والمدينة نحو نصف فرسخ في مثله. ولها نهر يسمى (دهاس) يجري في رياضها، وهو نهر يدير عشر أرحيه والبساتين في جميع جهات بلخ تحتف بها، وينتج الأترج وقصب السكر، ويقع في نواحيها الثلوج. وقال في اللباب: بلخ من خراسان فتحها الأحنف بن قيس التميمي زمن عثمان رضي الله عنه، وخرج من بلخ عالم لا يحصى من الأئمة والعلماء والصلحاء. (لأبي الفداء). من كتاب مجاني الأدب في حدائق العرب، للأب لويس شيخو اليسوعي، الجزء الأول: 194 طبعة 18، مصححة، طباعة مطبعة الآباء اليسوعيين سنة 1900.

والفرسخ كلمة فارسية وهي تقريباً ثمانية كيلو مترات، المنجد، صفحة 635، الأب معلوف اليسوعي، طبع: 1941، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.

والمزار الشريف Mazar Sharif مدينة عامرة، ومركز مقاطعة بلخ. وتقع بلخ في شمالي أفغانستان وهي مجاورة لأوزباكستان وتركمانستان الروسيتين. وتقع مدينة مزار الشريف في أسفل السفوح الشمالية لسلسلة جبال (هندوكوش) وعلى بعد 386 متراً منها، في منطقة واسعة مروية من مياه بلخ، ويزرع فيها الحبوب والقطن والنباتات الأخرى، مزودة المصانع الغذائية والنسيجية (القطنية) والتي تطورت بجانب الصناعة الحرفية التقليدية للسجاد. وجامعها الكبير من أجمل جوامع البلاد، ويحوي بقايا رفات من نسل سيدنا علي صهر الرسول عليه السلام، والمدينة مركز للحج وسوق كبيرة للفراء. وتوسعت المدينة وتضاعف عدد سكانها في بضع سنوات وبتأثير العملاق المجاور لها، فشيدت الأبنية الحديثة، وكثرت حركة السير فيها من شاحنات وسيارات جيب من صنع سوفيتي، وبلغ عدد سكانها عام 1966 – 41000 نسمة، ويرجح أنه بلغ 100 ألف نسمة عام 1970.

تعريب عن الفرنسية، الموسوعة الجغرافية لجميع بلاد العالم، والمسماة (المليون) صفحة 480 و486، الجزء 6، طبع 1971.

إخوته: السادة: أبا اسحاق محي الدين إبراهيم الأعزب (ولقب تكريمه نظام الدولة). ونجم الدين أحمد الأخضر (ولقب تكريمه حسام الدولة) (من فاطمة)، وعثمان (من نفيسة).

أخواته: خديجة (من فاطمة)، وعائشة وزينب وفاطمة (من نفيسة).

أعمامه: عبد الرحيم بن عثمان، (ولقب تكريمه ممهد الدولة) وزوجته السيدة زينب بنت القطب السيد أحمد الرفاعي الكبير، وعمه عبد السلام.

أولاد عمه: عز الدين أحمد الصياد وأولاده: علي أبو شباك (دفين مصر)، وصدر الدين علي، شمس الدين محمد وموسى الكبير وأحمد أبو بكر وعبد الرحيم. وقد ذكرتهم لما لبعضهم من علاقة وصلة بالجد إسماعيل، كما سنرى فما بعد.

وفاته: في الترنبا سنة 685 هـ، وله من العمر 112 سنة، وله في القرية المذكورة ضريح يُزار ويُتبرك به. ووفاته بزمن نائب السلطان في حلب، المملوك شمس الدين قراسنقر المنصوري.

وقد أرخ وفاته الشيخ زين الدين الشافعي الخليلي قاضي حلب، فقال:

قد مات أستاذ الرجال وقطبهم   شبل الرفاعي من حوى التكميلا
داعي القضا أرخه قام منادياً   للسيد الكيال اسماعيلا

كما ألف به وبمناقبه الشيخ الخليلي المذكور، رسالة اسمها: تحفة الذهب في رحلة الشيخ إسماعيل الكيال الرفاعي إلى حلب. وفيها قال فيه العدواني شاعر واسط، من قصيدة له:

يا ابن ذات النور فاطمة التي   عن أبيها المجد يروي والتقى
حزت فضلا قد تسامي ذكره   في البرايا وسناه اشرقا
والأماني ساعدت علياك ان   صرت شيخا في الطريق فائقا

ومنها قوله:

كيلك الفياض واف بره ملأ البر كسحب غدقا

بهجة الحضرتين، الحاشية صفحة 17 و 18.

نشأته وحياته

لم يتوفر لي من المصادر التاريخية، رغم التحري الدقيق، معلومات عن نشأة الجد إسماعيل في بداية حياته. وإنما الوقائع تؤيد بأنه ولد في أم عبيدة، وهي قرية قريبة من البصرة وواسط[17]، ودرس على مشايخها، وحضر بمجالس الذكر فيها، وأخذ بنصيب وافر في الفقه الشافعي وفي التصوف وعلم الطريقة، ولبس الخرقة الرفاعية عن أبيه وجده. وتكمل على يد أخيه شيخ الطريقة ومعدن الحقيقة القطب الأمجد السيد نجم الدين أحمد الملقب بالأخضر[18]، وكان هذا من الفقهاء الأجلاء والمتصوفة العظماء عالماً من العلماء، قطب الدوائر سلطان الشيوخ الأكابر، سيد العارفين في زمنه[19].

وقد اشتهر بالجذب من صغره، وتولهّ في الله، مُهيماً في حب الله، وصار شيخاً عارفاً بالله، وتفقه[20] على المذهب الشافعي، وأصبح عارفاً بالكتاب والسنة، عالماً بالأصول الفقهية والأحكام الشرعية. ويضاف إلى ذلك الفتح الرباني الذي شمله وأحاط به، ببركة جده السيد أحمد الرفاعي، فقام بهذه المعارف اللدنية والفتوحات الإلهية خير قيام.

---

[17] قال في تقويم البلدان: سميت واسط لتوسطها بين مدن العراق، إذ منها إلى البصرة خمسون فرسخاً ومنها إلى الكوفة خمسون فرسخاً ومنها إلى الأهواز خمسون فرسخاً، ومنها إلى بغداد خمسون فرسخاً. وهي على جانبي دجلة بينهما جسر من السفن. وقال في المشترك: وهي من بناء الحجاج اختطها بين الكوفة والبصرة في سنة أربع وسبعين من الهجرة وفرغ منها سنة ست وسبعين. صبح الاعشى للقلقشندي، الجزء الرابع، صفحة 335، طبع القاهرة 1914.

[18] بهجة الحضرتين، صفحة 18 لأبي الهدى الصيادي طبع مطبعة النهضة العربية، حلب لم يذكر تاريخ الطباعة.

[19] تنوير الأبصار، لأبي الهدى الصيادي، صفحة 41، طبع مصر، مطبعة محمد مصطفى سنة 1306هـ.

[20] تفقه الرجل أي تعلم الفقه وتعاطاه، المنجد صفحة 651.

وقد تحقق أخوه نجم الدين أحمد، من تمكنه من العلوم، حتى أذن له بالترحال إلى الديار الحلبية. وهي إشارة إلهية لا نعلم ما تنطوي

عليه وماهي الغاية منها ومما لا شك فيه، أن تلقي هذه العلوم الصعبة والشائكة والمعقدة فقهاً وشريعة وأصولاً وكلاماً، والتكمّل في مواضيعها المختلفة، وأصول تحقيقها المتباينة والإحاطة بها، يستغرق ردحاً من الزمن أضحى فيه الجد إسماعيل شيخاً [21] أي أنه في هذا الوصف قد أتمّ الخمسين من عمره، أو ربما كان قد تجاوزها، وهي نقطة هامة جداً في حياة الجد، وتحول كبير في مجرى حياته، كما سنرى ذلك في التحقيق المتعلق بهذا الموضوع إثر الإذن بترحاله إلى الديار الحلبية.

ولابد من ترجمة وجيزة لوالده وأخويه لبيان علو مكانتهم ورفعة منزلتهم العلمية والدينية والاجتماعية، لنتعرف على الأسرة التي نشأ وترعرع وتعلم فيها.

فوالده: علي بن سيف الدين عثمان، ولقب تكريمه (مهذب الدولة)، وأمه ست النسب أخت سيدنا أحمد الرفاعي الكبير.

وصار - أي عليّ - شيخ الرواق بعد خاله. وقال له خاله في مرض موته: أنت شيخ الرفاعية من الشيخ منصور إلى أن ينفخ في الصور. (تنوير الأبصار صفحة 30).

وكان - قدس سره - قد أجرى الله الحكمة على لسانه، وأنبع عيون الفطنة في قلبه، وكان قوياً في الله، متمكناً بأمر الله، ما خالف أمره أحد إلا قتله الله وكان له غيرة عربية، وهمة عالية، وهيبة عجيبة، وسطوة غريبة، لا يقدر أحد يقابله لخشيته ولا أن يدانيه لهيبته، ولا يخالفه مع تواضعه ورأفته واحسانه ولطافته ... له قلب رحماني وسر روحاني ... ويظهر الكرامات ويقول: إظهار الكرامات يزيد في يقين المريد ... (كتاب ربيع العاشقين: للشيخ علي أبو الحسن بن جمال الدين

[21] الشيخ: الذي استبانت فيه السن وظهر عليه الشيب. وقيل هو شيخ من خمسين إلى آخره وقيل هو من احدى وخمسين إلى آخر عمره، وقيل هو سن الخمسين إلى الثمانين. لسان العرب لابن منظور، صفحة 31.

الحدادي، خطيب قونية) و(كتاب مناقب الصالحين، للإمام الوتري) وتوفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة، وحمل إلى أم عبيدة ودفن إلى جانب خاله السيد أحمد الرفاعي الكبير.

وأخوه: محي الدين أبو اسحاق السيد إبراهيم الأعزب، ولقب تكريمه: نظام الدولة. قال الحدادي في ربيع العاشقين، عن السيد إبراهيم الأعزب ... كان علم العارفين وصدر المحققين وغوث الزمان وقطب الأوان.

وذكر صاحب كتاب (بحر الأنساب) واتفق أجلة العصر أجمعون على تفرد إبراهيم في عصره، عظمة المشايخ، وانقاد لخدمته جحفل الصوفية، وخضع لديه العلماء واعترف بعزته ومكانته الملوك والأمراء، وعقد له النسّابون وأصحاب الطبقات التراجم الجليلة ... وقال جمّ من أهل الصدق فيه أنه ما رفع رأسه إلى السماء أربعين سنة. (الإمام مؤيد الدين أبو النظام عبيد الله ابن الأعرج الحسيني، نقيب واسط).

ولد عام ست وأربعين وخمسمائة 546هـ. وتوفي بأم عبيدة سنة تسع وستمائة 609 هـ. (التنوير، صفحة 35). وقبره هناك ظاهر يُزار، رضي ا لله عنه.

وأخوه: نجم الدين أحمد الأخضر، ولقب تكريمه (حسام الدولة). كان خلفاً لأولئك السلف، ونعم الخلف، وكان صاحب زمانه بلا ريب، وأورع أهل وقته (ربيع العاشقين). وكرامات سيدنا نجم الدين أحمد، رضي الله عنه، لا تعد ولا تحصى.

وقال الحدادي: توفي الشيخ الكبير العالم العارف، قدوة الطوائف، صاحب الفتوة والاشارات والكرامات الظاهرات، العابد القانت، رداد الفائت، نجم الدين أبو العباس، سيدي أحمد بن علي، قدس روحه ونور ضريحه: يوم الأحد سابع عشر شعبان، سنة خمس وأربعين وستمائة 645هـ، ودفن في مشهدهم أمام الجامع برواق تقي الدين، رضوان الله عليه وعلى ذريته. (التنوير صفحة 41-43).

ففي هذا البيت الجليل، وفي هذه المدرسة الروحانية، ولد الجد إسماعيل وتربى ودرس وتعلم وتفقه، فورث من والده كراماته، ومن أخويه تلقى دروس الفقه والتصوف، وقد كملت صفاته، وأصبح بعد ذلك عارفاً بالله، وولياً من أولياء الله، قدس سره، ونور ضريحه.

علم التصوف

قال صاحب روح الإكسير[22] : لقد نشأ الشيخ إسماعيل عارفاً بالله، زاهداً في دنياه، وتفقه على مذهب الشافعي وأخذ التصوف وعلم الطريقة، وظهرت له أنوار بارقة وكرامات خارقة. وقال أيضاً: هو صاحب الكرامات الظاهرة والأحوال الغربية الزاهرة.

وأرى أن أقف وقفة عند علم التصوف، لأصل من هذه اللمحة السريعة، إلى علم الطريقة، ومنها إلى الأحوال الخارقة والكرامات الظاهرة، وتلك الأنوار البراقة إذ لابد لكل نتيجة من أسباب ومسببات.

هذا وإن الكثيرين من الفلاسفة وأصحاب الاختصاص، قد بحثوا هذا الموضوع بالتفصيل وأشبعوه بحثاً واستنتاجاً. ولكن لابد من عرض سريع للتذكير، للوصول إلى الغاية المنشودة.

تعريف علم التصرف

قال القشيري رحمه الله: ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس. والظاهر أنه لقب. ومن قال اشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي. قال: وكذلك من الصوف لأنهم لم يختصوا بلبسه[23].

---

[22] أبي الحسن الواسطي، مخطوط.

[23] الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري النيسابوري، صفحة 560، تحقيق معروف زريق وعلي عبد الحميد بلطه جي، طبع دار الخير، دمشق، سنة 1408هـ - 1988م.

ولم أجد لهذه الكلمة أصل في لسان العرب لابن منظور. إلا أن صاحب منجد الطلاب يقول: الصوفية: فئة من المتعبدين، وأحدهم (الصوفي) وهو عندهم: من كان فانياً بنفسه، باقياً باللّه تعالى، مستخلصاً من الطبائع متصلاً بحقيقة الحقائق[24].

وقال العلامة ابن خلدون: والأظهر أن ما قيل بالاشتقاق، أنه من الصوف. وهم في الغالب مختصون بلبسه[25]. في حين أن كبير أقطاب الصوفية، أبو الحسن الشاذلي، لبس أفخر الثياب، وكان يركب الفاره من الدواب، ويتخذ الخيل الجيادة[26]. مستنداً لقوله تعالى (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (32)[27].

فظهر أن أصل طريقتهم كلها: محاسبة النفس على الافعال والتروك، والكلام في هذه الاذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات ثم تستقر للمريد مقاماً ويترق منها إلى غيرها، ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم. فلما كُتبت العلوم ودونت، وألف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك، كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقتهم، فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك، كما فعله القشيري في الرسالة، والسهروردي في كتاب: عوارف المعارف، وأمثالهم.

وجمع الغزالي رحمه الله بين الأمرين في كتاب الإحياء، فدّون فيه أحكام الورع والاقتداء، ثم بيّن آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم وصار علم التصوف علماً مدوناً، بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط. وكانت أحكامها إما

---

24 منجد الطلاب صفحة 487، طبع سنة 1941.

25 مقدمة ابن خلدون، صفحة 558، طباعة مطبعة المعارف العلمية بمصر، لم يذكر تاريخ الطبع.

26 لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري، صفحة 129.

27 سورة الأعراف الآية 32.

تُتلقى من صدور الرجال، كما وقع في سائر العلوم التي دونت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك[28].

وعلى هذه المجاهدة والخلوة والذكر والانقطاع بالكلية إلى الذات الإلهية تنكشف الحجب وتقوى أحوال الروح وتنمو وتزيد، فيصبح المرء شهوداً بعد أن كان علماً ويكشف حجاب الحس ويتم وجود النفس، الذي لها من ذاتها، وهو عين الإدراك. فيتعرض للمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الإلهي، وتقرب ذاته في تحقيق حقيقتها من الأفق الأعلى: أفق الملائكة. وهذا الكشف كثيراً ما يعرض لأهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود مالا يدرك سواهم. وكذلك يدركون كثيراً من الواقعات قبل وقوعها، ويتصرفون بهممهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية، وتصير طوع إرادتهم. وكان الصحابة، رضي الله عنهم، على مثل هذه المجاهدة.

ويمكن القول: إن التصوف: تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية، وقال: رُوَيم [29] بتعريف جميل: هو استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد. فالتصوف: (1) تصفية للنفس كوسيلة، (2) وقرب ومشاهدة كغاية. فهو يتضمن الوسيلة والغاية، أو الطريقة والحقيقة [30].

وعلى هذا، فالإحسان، لغة فعل ما ينبغي أن يُفعل من الخير. وعرفاً: هو التحقق بالعبودية على مشاهدة حضرة الربوبية بنور البصيرة، وهو دون مقام المشاهدة في مقام الروح [31].

ويرى المتصوفة في الاسلام، أن طريق الحق طويل المدى وعر المسالك. وقلّ من الناس من يبلغ نهايته، إذ لابد لهذه الغاية من رياضة شاقة تقوم بها النفس

[28] مقدمة ابن خلدون، صفحة 560.

[29] أبو محمد رويم بن أحمد، بغدادي من أعظم مشايخ الصوفية كان فقيهاً ومقرئاً، توفي 303هـ - 915م، القشيري صفحة 390.

[30] د. عبد الحليم محمود، أبي الحسن الشاذلي صفحة 125.

[31] الفريدة الدرية، صفحة 18.

لعبور (مقامات معينة) والتمرس بالحالات التي تطابقها. فالمقامات مراحل يمر بها السالك من مقام إلى آخر، كما يقطع المسافر مراحل طريقه. وقد اختلف المتصوفة في عدد هذه المقامات، وتبلغ عند الطوسي سبعة وهي: التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكل والرضى. وعلى هذه الصفات الروحانية ينتقل إلى درجة الولاية [32].

الوليّ

هو العارف بالله تعالى وبصفاته. المواظب على الطاعة المجتنب للمعاصي. ويسمى وليّاً لأن الله تعالى تولى أمره فلم يكله إلى نفسه ولا إلى غيره لحظة، ولأنه يتولى عبادة الله على الدوام من غير أن يتخللها عصيان.

وقال غوث الثقلين سيدي أحمد الرفاعي أبي العلمين رضي الله عنه: الولاية أجل المعاريج وأعظم المقامات بعد النبوة.

ولا يصل العبد إلى مقام الولاية الكاملة إلا إذا كمُل عقله، وعلت همته وصح صدقه وتم اتباعه في الأقوال والأفعال للنبي عليه السلام، لأن مرتبة الولاية ينوب صاحبها عن النبي في الأمة. والأولياء ثابت وجودهم بالنص والتواتر والعقل بلا دفاع. وكونهم على درجات معلوم بالكتاب والسنة. ورئيسهم وأعظمهم المقدم فيهم، هو الذي يسمونه الجماعة بالقطب الغوث على أنه عمود رحاهم الذي يدور أمرهم عليه، ونيابته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ملك الله هي الوراثة المعنية بخبر العلماء ورثة الأنبياء، إذ ما من ولي إلا وهو على قدم نبيّ [33].

فللأولياء الصالحين عند الصوفية حكومة، أو حكومة باطن، عليها (في اعتقادهم) يتوقف نظام العالم. ورأس هذه الحكومة الأعلى يسمى (القطب) وهو أرفع

---

[32] الشيخ السراج الطوسي: اللمع في التصوف صفحة 47.

[33] الفريدة الدرية، صفحة 6 -61 -65.

متصوفي عصره ودون هذا القطب درجات مختلفة من الأولياء. أولهم النقباء الثلاثة، فالأوتاد الأربعة ومجموعهم سبعة، ومن بعدهم الأبرار السبعة ثم يليهم الابدال الأربعون، وأخيراً الأخيار الثلاثمائة، كل ذلك في تشكيل هرمي يعلوه: القطب [34].

ومن علامات الولي أربعة أشياء: صيانة سره بينه وبين الله عز وجل، وحفظ جوارحه فيما بينه وبين أمر الله تعالى، واحتمال الأذى فيما بينه وبين خلق الله تعالى، ومداراته للخلق على قدر تفاوت عقولهم.

وأركان الوصل بين العبد وبين الله تعالى ثلاثة: الاستغاثة والجهد والأدب. فمن العبد الاستغاثة ومن الله عز وجل القربة. ومن العبد الجهد ومن الله عز وجل التوفيق، ومن العبد الأدب ومن الله عز وجل الكرامة.

ومن تأدب بآداب الأولياء صلح لبساط القربة. ومن تأدب بآداب الصديقين صلح لبساط المشاهدة. ومن تأدب بآداب الأنبياء، عليهم السلام، صلح لبساط الأنس والانبساط. وإذا كانت نفسك غير ناظرة لقلبها فأدبها، وما ركن أحد إلى نفسه إلا لزمه تعب القلب. ومنه المقامات كلها تبع للقلب، والقلب واقف مع الله عز وجل. وحكم المبتدي أن يهتدي بالحقائق ويسير بالعلم ويجهد في العمل.

---

[34] د. عمر دقاق، بحث منزلة العدد 7 في الفكر العربي، مجلة عاديات حلب، صفحة 96 سنة 1975، طبع جامعة حلب، المجلد الأول.
هذه الأسماء أي: القطب والغوث والأبدال والنقباء والنجباء والعمد والأخيار لها وجود ولها صفات ولها سند في الشرع، وقد ألف خاتمة المحققين العلامة محمد أمين عمر عابدين، رسالة خاصة في هذا الموضوع سماها: (إجابة الغوث ببيان حال النقباء والنجباء والأبدال والأوتاد) ذكر فيها كل بحث يتعلق في هذا الموضوع بما فيها الأدلة والأحاديث. الرسالة، صفحة 264-282، مجلة نهج الاسلام عدد 52 لسنة: 14، ذي الحجة 1413هـ - حزيران 1993م، صفحة 173، طباعة الجمعية التعاونية للطباعة بدمشق.

مقامات المقربين وخواص الخواص

ومن مقامات المقربيين أن يرفع الحجب بين القلوب وبين علاّم الغيوب، ومن ركب النهاية في بدايته كان ذلك علماً على قربه. فقوم شهدوا الداعي وقوم شهدوا النداء، وقوم شهدوا البلاء. فمن سمع النداء سار إلى الجنة، ومن شهد البلاء انتهى إلى الدرجات، ومن شهد الداعي، صار إلى الله عز وجل، وهم: خواص الخواص الذين لا يحجبون عن الله عز وجل طرفة عين. أولئك عباد ربطوا قلوبهم بأزمة التيقظ، ورعى عزمهم عز وجل عن الفتور، وحرس نياتهم عن طوارق الاعتلال، وقطع ارادتهم عن التطلع إلى غيره وأظمأ قلوبهم من الاشتياق إلى رؤيته، وأيقظ عقولهم في حكم صنعته، وأطلع أفئدتهم على قرب مراقبته، وتجول أرواحهم بين نسائم صفاته: قد أدناهم ادناء من أنس به، وناجاهم مناجاة من أمنه، وفاوضهم مفاوضة من ارتضاه لسره، سيماهم الحياء في حال الادناء، رضي الله عنهم [35].

معنى الطريقة والشريعة والحقيقة

الشريعة أمر بالتزام العبودية. والحقيقة مشاهدة الربوبية. ومشاهدة الربوبية أي رؤيتها بالقلب، ويعبّر عن ذلك بأن الشريعة: معرفة السلوك إلى الله تعالى. والحقيقة دوام النظر إليه. والطريقة سلوك طريق الشريعة، أي العمل بمقتضاها.

كل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فأمرها غير مقبول، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فأمرها غير محصول.

والشريعة جاءت بتكليف من الخالق، والحقيقة أنباء عن تصريف الحق. فالشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده. والشريعة قيام بما أمر، والحقيقة

---

[35] تنوير الأبصار، صفحة 36.

شهود لما قضى وقدر وأخفى وأظهر. سمعت أبا علي الدقاق رحمه الله يقول (إيّاك نعبد) حفظ للشريعة، و (إيّاك نستعين) إقرار بالحقيقة.

واعلم أن الشريعة حقيقة مضن حيث أنها وجبت بأمره، والحقيقة أيضاً شريعة، من حيث أن المعارف [36] به سبحانه أيضاً وجبت بأمره [37].



[36] أن المعارف: أي معرفة العارفين النفس.

[37] الرسالة القشيرية، صفحة 82.

الفصل الرابع

الكرامات

إن الكثير من المثقفين في العصر الحاضر ينكرون الكرامات ويرون أنها بعيدة عن التصديق، وينادون بإنكارها، بل ويسخرون في وضوح أو في همسات أو في لمزات بكل من يروي كرامة لولي.

ولهذا فهم على نقيض اتباع الأولياء الذين يحاولون الإشادة بذكرهم، ويروون عنهم الكرامات الكثيرة، فيصادف ذلك قبولاً وارتياحاً عند السامعين ونفوراً وإعراضاً عند الآخرين. وإن هذا الاستعلاء مرده إلى الجهل في معرفة حقيقة هذه الكرامات. (لأن ما جاز أن يكون معجزة لنبي، جاز أن يكون كرامة لولي).

فالتنزيل العزيز يحدثنا في وضوح لا لبس فيه عن المعجزات التي تفضّل الله بها على رسله وأنبيائه. كما يحدثنا عن الكرامات التي منحها الله سبحانه وتعالى، جلت عظمته لأوليائه وأصفيائه.

لقد حدثنا القرآن الكريم عن معجزات سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام، بأنه كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله. وأنه كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله.

قال تعالى: وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (49) [38].

---

[38] سورة آل عمران الآية 49.

ويحدثنا التنزيل العزيز عن سيدنا موسى عليه السلام حينما ألقى عصاه فإذا هي حية تسعى.

قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (20) [39].

وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (69) [40].

وأنه أخرج يده فإذا هي بيضاء للناظرين.

وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (22) [41].

ثم إن ما نسميه قوانين الطبيعة، إنما هو في الواقع (عادات الطبيعة) وخرقها غير مستحيل عقلاً ولا يترتب عليه مستحيل. وعادات الطبيعة لا تسيطر على رب الطبيعة [42].

وسيدتنا مريم، ألم تحمل بسيدنا عيسى عليه السلام من غير أب خارقة بذلك قوانين الطبيعة. وكانت: كلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ [43].. وقوله سبحانه وتعالى: وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا [44].

وهناك كرامات وردت في السنة الشريفة، ومنها حديث الغار. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: انطلق ثلاثة رجال ممن كان قبلكم فآواهم المبيت إلى

---

[39] سورة طه الآية 19-20.
[40] سورة طه الآية 69.
[41] سورة طه الآية 22.
[42] د. عبد العليم محمود، صفحة 203، في كتابة عن الشاذلي. وأنظر إذا شئت: تفسير القرآن: للشيخ محمد متولي شعراوي، صفحة 40، طبع أخبار اليوم: 1991، مصر.
[43] سورة آل عمران - الآية 37.
[44] سورة مريم – الآية 25.

غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار. فقالوا والله لا ينجينا من هذه الصخرة إلا أن ندعو الله بصالح أعمالنا.

فقال أحدهم: كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق [45] قبلهما أهلاً ولا مالاً، فعاقني طلب يوماً، فلم أرح لهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فجئتهما به فوجدتهما نائمين، فتحرجت أن أوقظهما وكرهت أن أغبق قبلهما، فقمت والقدح بيدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرة انفراجا لا يستطيعون الخروج منه.

وقال الثاني: اللهم لقد كانت لي ابنة عم، كانت أحب الناس إليّ، فراودتها عن نفسها فامتنعت. حتى ألمت بها سنة من السنين، فجاءتني فأعطيتها مائة وعشرين ديناراً على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت، حتى إذا قدرت عليها، قالت: لا يحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه. فتحرجت من الوقوع عليها، وانصرفت عنها وهي أحب الناس إليّ وتركت المال الذي أعطيتها اياه. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرة، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

ثم قال الثالث: اللهم أني استأجرت أجراء فأعطيتهم أجورهم غير رجل واحد منهم، ترك وذهب، فثمّرت أجره. فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أدِّ إليّ أجرتي، فقلت له: إن أجرتك هي كل ما ترى من الإبل والغنم والبقر والرقيق. فقال يا عبد الله لا تستهزئ بي، فقلت إني لا أستهزىء بك، ورويت له القصة، فأخذ ذلك كله فاستاقه ولم يترك منه شيئا. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة، فخرجوا من الغار يمشون [46].

---

[45] الغبوق: ما يشرب في العشي، وهو خلاف الصبوح، المنجد صفحة 597.

[46] حديث صحيح متفق عليه.

وأن هؤلاء الأقطاب أو أصحاب الكرامات، والتي تجري على أيديهم، لا ينسبونها لأنفسهم وإنما ينسبونها إلى رب الأرباب، صاحب القدرة والقوة والقهر وهو على كل شي قدير.

أليست قصة سيدنا الخضر مع سيدنا موسى عليه السلام، التي قصها التنزيل العزيز في سورة الكهف من القرآن العظيم، والمشاهد الرائعة والكرامات الباهرة التي لم يستطع سيدنا موسى عليه السلام - كليم الله - الصبر والسكوت عنها حتى افترق كل عن صاحبه. وانتهى سيدنا الخضر مخاطباً سيدنا موسى عليه السلام: وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا [47].

وكما نرى بأن ما ظهر على يدي الخضر عليه السلام، وهي أمور مناقضة للعادة، اختص الخضر بها، ولم يكن نبياً، إنما كان ولياً.

ومن دلائل ذلك نص القرآن الكريم، في قصة صاحب النبي سليمان عليه السلام حيث قال: قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي [48].

وصاحب سليمان هو آصف بن برخيا، كان صدّيقاً يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دُعيّ به أجاب وإذا سُئل به أعطى. وقال المفسرون أن آصف خاطب سيدنا سليمان عيه السلام قائلاً له أنظر إلى السماء فنظر إليها ثم ردّ بطرفه فوجد عرش بلقيس ملكة سبأ موضوعاً بين يديه، ففي نظره إلى السماء دعا آصف بالاسم الأعظم أن يأتي الله به فحصل بأن جرى تحت الأرض حتى نبع تحت كرسي سليمان [49]، ولم يكن آصف نبياً.

---

[47] سورة الكهف – الآيات 66-82.
[48] سورة النمل – الآية 40.
[49] تفسير الجلالين – صفحة 318.

وقد كان الصحابة، رضي الله عنهم، على مثل هذه المجاهدة الروحية، وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ. وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قد كان فيما كان قبلكم من الأمم ناس محدثون، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر. وقد وقع للصحابة من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك في مثل قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو على منبر المسجد في المدينة المنورة موجهاً الكلام إلى سارية بن زنيم [50] حيث كان يفتح بلاد فارس سنة 23هـ، قاطعاً خطبة يوم الجمعة صائحاً: يا سارية الجبل الجبل، أي الزم الجبل واصعده ففي ذلك نجاتك من أعدائك الذين أحاطوا بك، بعد أن هم بالانهزام، وسمعه سارية وهو مكانه ورأى شخصه هنالك والقصة معروفة ... ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم ولمن بعدهم من الصالحين وأهل الاقتداء.

كرامات الأقطاب

وكرامات الاقطاب الأربعة السادة: أحمد الرفاعي وعبد القادر الجيلي وأحمد البدوي وإبراهيم الدسوقي، رضي الله عنهم لا تقع تحت حصر، ولا مجال لسردها، ومن أراد الزيادة فعليه مراجعة هذه المواضيع في مظانها [51]. وترى العجب العجاب من كرامات هؤلاء الأقطاب.

وكرامة القطب أبي الحسن الشاذلي [52] حينما قلب الرصاص ذهباً خالصاً وهاجاً وأرسله هدية لسلطان مصر محمد بن قلاوون، وقد أتهمه أهل عصره بالزندقة وأنه يضرب الزغّل[53] وهو كيموي، وحذروا الناس من مجالسته، حتى نزل السلطان لزيارته في الاسكندرية وأضمر في نفسه أن يعلمه الكيمياء، فعرف

---

[50] سارية بن زنيم الدئلي الكناني صحابي مخضرم شهد الجاهلية والإسلام، من الشعراء القادة الفاتحين توفي 30هـ - 650م.

[51] راجع إن شئت: نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار، للعالم الفاضل الشيخ مؤمن بن حسن مؤمن الشبلنجي، الطبعة الأولى، المطبعة المحمودية بمصر عام 1313هـ -1900م – الصفحات 213 -227 -228 حتى نهاية 231.

[52] المتوفى 656 هـ، سبط خير البرية أبي محمد الحسن ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. راجع إن شئت: لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري.

[53] الزغل: الغش، و الزغلي: الغشاش. المنجد صفحة 333.

الشيخ قصده وعلم نيته وخاطبه قائلاً: كيمياؤنا التقوى فاتق الله يعلمك حرف: كن [54].

وهذا ابن الفارض[55] سلطان العاشقين يقول: ودخلت مكة ثم شرعت في السياحة في أوديتها وجبالها وكنت أستأنس بالوحوش ليلاً ونهاراً. وأقمت بواد بينه وبين مكة عشرة أيام للراكب المُجدِّ، وكنت آتي منه كل يوم وليلة وأصلي في الحرم الشريف الصلوات الخمس. وكان يصحبه في ذهابه وايابه سبع عظيم الخلقة، ينخ له كما ينخ الجمل [56] ويقول له: يا سيدي اركب، فما ركبه قط. وقد تحدث بعض كبار المشايخ المجاورين في الحرم، في تجهيز دابة يركبها ابن الفارض، فظهر لهم السبع عند باب الحرم وقال له: يا سيدي اركب [57].

وظهرت كرامة الكيل، لجدنا القطب إسماعيل، قدس سره، في واقعتين متصلتين تتمم كل واحدة الأخرى:

الأولى: سيلان القمح متدفقاً من الخلايا الفارغة.

الثانية: قيام الكيل من تلقاء نفسه بتملئة القمح وتفريغه في أوعية طالبيه، دون وسيط، كما سنوضح ذلك بالتفصيل فيما بعد.

وهذه هي الكرامة التي أشار إليها سيدنا أحمد الرفاعي الكبير مخاطباً والده السيد علي مهذب الدولة بقوله: أبشرك بولد يملأ ذكره الأرض ويشتهر (بكرامة) خصه الله بها دون اخوته وبني عمه، ما سبقه بها أحد ولا تصدر لغيره إلى يوم القيامة وهي كرامة الكيل واشتهاره بها شرقاً وغرباً، وهي كرامة عظيمة ما سبقه بها أحد قبله ولا بعده. ثم انه لما ولد، قدس سره، أتى به والده إلى حضرة جده

---

[54] نور الأبصار – صفحة 227 – 228.

[55] أبو حفص وأبو القاسم عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي ويعرف بـابن الفارض وينعت بشرف الدين ويلقب: بسلطان العاشقين.

[56] نخ أي برك، المنجد صفحة 898.

[57] ابن الفارض، للدكتور محمد مصطفى حلمي، اعلام العرب، رقم 5 صفحة 128، طبع وزارة الثقافة المصرية، سنة 1382هـ - 1963م.

الغوث الرفاعي، فدعا له ونفخ في فيه، وقال له : نور جذبك يفيض على أهل المشرق والمغرب، اللهم بارك فيه وفي ذريته [58].

وبفضل هذا الدعاء، ظهرت لجدنا القطب إسماعيل، قدس سره، أنوار بارقة وكرامات وأحوال خارقة ونشر أعلام الطريقة، وأخذ عليه الجم الغفير من أكابر حلب وأعيانها وتلك النواحي، وخدمة الصلحاء، وتقصده الناس من الديار الشامية والأقطار البعيدة تلتمس من بركاته، رضي الله عنه وأرضاه. حتى صار شيخاً عارفاً بالله زاهداً في دنياه منكباً على العبادة والخلوة، لايتكم بكلام الدنيا إلا عند الحاجة والاضطرار، لا يفتر لسانه عن ذكر الله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم [59]، فأصبح ولياً من أولياء الله الصالحين.

الكرامات ومعجزات الرسل

فإن قيل: كيف يجوز اظهار هذه الكرامات الزائدة في المعاني على معجزات الرسل؟ وهل يجوز تفضيل الأولياء على الأنبياء عليهم السلام؟

قيل هذه الكرامات لاحقة بمعجزات نبينا صلى الله عليه وسلم، لأن كل من ليس بصادق في الاسلام لا تظهر عليه الكرامة.

وكل نبي ظهرت كرامته على واحد من أمته فهي معدودة من جملة معجزاته. إذ لو لم يكن ذلك الرسول صادقاً لم تظهر على يد من تابعه الكرامة. فأما رتبة الأولياء فلا تبلغ رتبة الأنبياء عليهم السلام للإجماع المنعقد على ذلك. وقد سئل أبو يزيد البسطامي[60] عن هذه المسألة فقال: مثل ما حصل للأنبياء عليهم السلام، كمثل زق فيه عسل، ترشح منه قطرة، فتلك القطرة مثل ما بجميع الأولياء، وما في الظرف مثل ما لنبينا صلى الله عليه وسلم[61].

---

[58] بهجة الحضرتين، صفحة 17.

[59] المرجع السابق، صفحة 18 وعن روح الاكسير للواسطي، صفحة 32.

[60] أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي 188-261هـ، 804-875م. كان جده مجوسياً وقد أسلم.

[61] الرسالة القشيرية، صفحة 356.

أليس الحديث القدسي الذي رواه إمام المحدثين، أبو عبدالله البخاري، وهو: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه: (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب. وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب لي مما افترضته عليه. وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. ولئن سألني أعطيته، ولئن استعاذ بي لأعيذنه)، هو خير مقال في هذا المجال.

وأترك تفصيل كرامة الكيل، ووقائعها وظروفها، والتحقيق الذي أجريته لفصل خاص، بعد أن أوضح الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت تحيط بحياة الجد إسماعيل، قدس سره، في قرية الترنبا. والأسباب البعيدة والقريبة، لإظهار وتبيان هذه الكرامة العظيمة التي تستحق الإجلال والتعظيم لهذا القطب الجليل، رضي الله عنه وأرضاه.

فكرامة الكيل ليست مجرد واقعة عابرة، فهي ذات مغزى عميق، إضافة إلى نتائج باهرة خارقة للعادة، لأن عظمة النتيجة دلالة على عظيم السبب وبالتالي على هول الموضوع المسبب لها. فهي بارقة عجيبة لم يسبقها سابق ولم يلحق بها لاحق.

هذا المشهد الرباني الروحي الذي تتجلى فيه القدرة الالهية بأعمال وأفعال ونتائج خارقة للعادة على مشهد من الناس ومرأى من عساكر السلطان، لأبلغ دليل مادي ومعنوي على كرامة الولي القطب الجليل والعلم الطويل جدنا الغوث إسماعيل، قدس سره.

كرامات الأولياء في الحياة وبعد الممات

وكرامات الأولياء ثابتة الوقوع في الحياة وبعد الممات، لأن هؤلاء الموتى من الصالحين بعد انسلاخهم من الصفات البشرية، وانقطاع علائقهم عن الدنيا الدنية، وارتياحهم بلقاء الله تعالى المستوجب لهم السعادة السرمدية، أفيضت عليهم أنوار الحضرة القيومية، حتى أوضحت لهم كل خفية، ورفعت عنهم الحجب والثرى والمسافة القصية.

وقال الإمام حجة الإسلام محمد الغزالي: من يُتوسل ويُتبرك به في حياته، يُتوسل ويتبرك به بعد موته.

وذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراني - قدس سره - أن الله تعالى يوكل بقبر الوليّ ملكاً يقضي حوائج الناس.

وأجاب الإمام العالم العلامة شيخ مشايخ الإسلام مصطفى العزيزي بقوله: كرامات الأولياء ثابتة واقعة بالفعل في حياتهم وبعد موتهم، بالأخبار الصحيحة التي بلغت في إفادة العلم مبلغ اليقين، حتى صار المستفاد منها، شبيهاً بالعلم الضروري الذي انتفت عنه الشكوك والأوهام، فلا يرتاب ولا يشك في ذلك عاقل يؤمن بالله واليوم الآخر [62].

وذكر أستاذنا العالم العلامة الشيخ طاهر المنلا الكيالي الرفاعي: أن الملائكة تتنزل على أولياء الله سبحانه، بعد انتقالهم، لقوله: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ [63].

[62] طي السجل - محمد مهدي الصيادي الشهير بالرواس - تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط السقباني الدمشقي – الصفحات 280-281-284-306-307، الطبعة الأولى، سنة 1391هـ.

[63] سورة فصلت، الآية 30.

وقال الرازي: تتنزل عليهم الملائكة في مواطن ثلاثة: عند الموت وفي القبر وعند البعث[64].

الفصل الخامس

الارتحال

إن الإشارات في ارتحال الأولياء أو الأصفياء عن مواطنهم والسكن والاستقرار في مواطن بعيدة أخرى نائية، حيث لا معارف ولا قرابة، ولا نسب ولا مصاهرة، ولا عصبية ولا قبلية، أمور تستدعي التأمل والتقصي لدى أول وهلة. ولكن ما يقف العقل عن التفكير والمنطق عن التبرير إنما هي في الحقيقة والواقع تدابير أزلية قدرتها العناية الإلهية، لأسرار خفية لا ندرك حقيقتها ولا نستطيع الغوص في أعماقها، لقصور عقولنا عن إدراكها. ولهذا نأخذ بظاهر الأمور والله - جلت عظمته، يعلم ما في السرائر، وهو يعلم الغيب وأخفى، ولا نعلم الحكمة الربانية من وراء الأوامر التي يقدرها رب العزة. فهي ولا شك نعمة كبرى يفيض علينا بها من كرمه وإحسانه، جل جلاله في سبيل خيرنا وسعادتنا.

ان استقرار جدنا حيث أمر في قرية الترنبا، يكشف لنا ظاهر الأمر، أنه أعقب هذا النسل الكريم الذي بارك الله فيه، وأخبرنا عنه، جده القطب الغوث السيد أحمد الكبير الرفاعي، حين أتى به والده اثر ولادته، إلى حضرة جده الغوث أحمد الرفاعي، فدعا له ونفخ في فمه وقال له: نور جذبك يفيض على أهل المشرق والمغرب،

[64] الفريدة الدرية، صفحة 6.

اللهم بارك فيه وفي ذريته. فأثرت دعوة جده، بأن جعله الله مجذوباً من صغره عن الدنيا.

أم كان استقراره حيث أمر انقاذاً لأهل قريته الضعفاء البؤساء مما كان سينالهم من سوء العذاب، في حالة عدم تلبية أوامر السلطان وجنوده من تقديم ما يترتب عليهم دفعه من ضرائب لدولة الإقطاع؟ أم هنالك أموراً غيبية أخرى لا ندركها، ولا نعلم أسرارها؟

وعلى كل حال، وبعد أن أصبح جدنا القطب إسماعيل شيخاً فقيهاً عالماً بأسرار الشريعة وعلوم الحقيقة، وتخرج من مدرسة أخيه نجم الدين الأخضر، ونجح في دراساته وعلومه، أذن له في الترحال إلى الديار الحلبية [65].

وفي واقع الحال أن هذا الاذن هو الإشارة بالترحال، بل هو أمر لابدّ من تلبيته وتنفيذه دون اعتراض أو جدال، فعليه الانقياد والانصياع لما أمر به. وعليه الاستعداد للرحيل، ومعه من الأسرار الالهية والبوارق الربانية خير هدى وعرفان ونور يستضيء به. والانتقال في ذلك الزمان لم يكن يسيراً مطلقاً، بل جهداً وكفاحاً مريراً للنفس والجسد. والترحل من بيداء مقفرة لا أنيس ولا جليس ولا مؤونة ولا زاد فيها، واجتياز الجبال والسهول، ومن أودية إلى مفازات ... تتطلب جميعها صبراً ومعاناة لا تذللها إلا التقوى، فهي الرياضة الروحية المثلى.

لقد ترحل ليخلو إلى الله، ولتصفو نفسه فرق صفائها في هذه البيد المقفرة الموحشة، ويلقي بكيانه كله في الرحاب الإلهي مستسلماً أسلم القيادات بأجمعها: جسماً ونفساً وعقلاً وروحاً وقلباً إلى من بيده الأمر وهو الذي يهديه ويرشده إلى سواء السبيل.

65 روح الاكسير للواسطي، صفحة 36.

اشارات مماثلة لأقطاب آخرين

ولم ينفرد الشيخ الجليل الجد إسماعيل بهذه الاشارة في الترحال بمفرده دون غيره تاركاً وطنه وإخوته وأهله المقربين. فقد أرسلت اشارات ربانية لغيره من الأقطاب. وعلى سبيل المثال، لا الحصر: سأسرد إشارتين لكل من القطبين: الشاذلي وابن الفارض، اثباتاً للقسمة الأزلية التي أمر بها رب الأرباب.

الأولى: الاشارة التي أمر بها الشيخ القطب عبد السلام بن مشيش، شيخ الشيخ أبي الحسن الشاذلي [66] رضي الله عنهما، حينما رسم ابن مشيش حياة أبي الحسن فيما يستقبله من أيام قائلاً: يا علي، ارتحل إلى أفريقية واسكن بها بلداً تسمى بشاذلة [67] فإن الله عز وجل يسميك (بالشاذلي) ثم تنتقل إلى مدينة تونس، ويؤتى عليك بها من قبل السلطنة وبعد ذلك تنتقل إلى أرض المشرق وبها ترث القطابة [68].

الثانية: رحلة ابن الفارض بأمر من شيخه، من وادي المستضعفين بالجبل الثاني من المقطم ... حتى كان ذلك اليوم الذي يحدثنا هو عنه: بأنه حضر فيه من السياحة إلى القاهرة ودخل المدرسة السيوفية، فوجد شيخاً بقالاً على بابها يتوضأ وضوءاً غير مرتب، فاعترض عليه ابن الفارض: بأن هذا الوضوء مناف لقواعد الشرع!.

وهنا نظر الشيخ إلى ابن الفارض وقال له: يا عمر: أنت ما يفتح عليك في مصر، وإنما يفتح عليك بالحجاز في مكة شرفها الله، فاقصدها فقد آن لك وقت الفتح. فدهش ابن الفارض من هذا القول، ورد على الشيخ بأن الأمد بينه وبين مكة

---

[66] ولد في قرية (غمارة) ببلاد المغرب قريبة من سبتة عام 593هـ، وتوفي في حميثرا، في صحراء عذاب، في صعيد مصر عام 656هـ.

[67] شاذلة: قرية قرب تونس.

[68] تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود، اعلام العرب، ابو الحسن الشاذلي، الصوفي المجاهد والعارف بالله، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة - 1967م.

بعيد، وأنه لا يجد ركباً ولا رفقة في غير أشهر الحج. قال الشيخ وهو يشير: هذه مكة أمامك.

قال ابن الفارض: فنظرت معه فرأيت مكة شرفها الله تعالى فتركه وطلبتها، فلم تبرح أمامي إلى أن دخلتها في ذلك الوقت. وجاءني الفتح حين دخلتها فترادف ولم ينقطع، ثم شرعت في السياحة في أودية مكة وجبالها وكنت أستأنس بالوحوش ليلاً ونهاراً. وأقمت بواد بينه وبين مكة عشرة أيام للراكب المُجدِّ، وكنت آتي منه كل يوم وليلة وأصلي في الحرم الشريف الصلوات الخمس [69] وكان يصحبه في ذهابه وإيابه سبع عظيم الخلقة، ينخ له كما ينخ الجمل ويقول له: يا سيدي اركب فما ركبه قط. وقد تحدث بعض كبار المشايخ المجاورين في الحرم في تجهيز دابة يركبها ابن الفارض، فظهر هم السبع عند باب الحرم، وقال له: يا سيدي اركب [70].



---

[69] تحقيق الدكتور محمد مصطفى حلمي، الجزء الأول: شرح ديوان ابن الفارض، الصفحات 4-5-128، طبع المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر 1382هـ - 1963م.

[70] المرجع السابق، صفحة 90.

الفصل السادس

الطريق إلى الديار الحلبية

ليس لديّ من الوثائق ما يفيد بالطريق التي اتبعها الجد إسماعيل وأسرته بالتوجه إلى الديار الحلبية، ولكن طريق القوافل معروف منذ زمن بعيد، بين بغداد ودمشق. وكيف كان سير القوافل في هذه البوادي والقفار الموحشة، حيث تستعمل الدواب للركوب ولحمل الأمتعة، وقد انتشرت على طول الطريق خانات خاصة لنزول المسافرين أشبه بالفنادق في عصرنا الحاضر. وقد تطول المدة الزمنية وتقصر تبعاً للأحوال الجوية والظروف القاسية في كثير من الحالات والتي كانت ترافق القوافل.

وكان لابد من الوصول إلى الديار الشامية، وإتباع الطريق التي تتجه شمالاً إلى الديار الحلبية، وهي طريق القوافل التي تسير باتجاه الحجاز وهي قوافل الحجيج.

الوصول إلى قرية: متكين[71]

ومن دمشق وباتجاه نحو الشمال، يتابع الركب ترحاله، حيث طريق القوافل التجارية معروف ومألوف، إلى حمص فحماة، ثم إلى قرية متكين، والتي يقيم فيها ابن عمه، القطب عز الدين أحمد الصياد[72]، والذي اتخذ متكين مقراً له ولخلفائه من بعده، وهو الذي أشار إليه بأن يكون مقره قرية الترنبا، وهي على مسافة قريبة منه، وإلى الشمال من قريته، وبالقرب من سرمين.

---

[71] قرية في الجهة الجنوبية من خان شيخون، هُدمت ولم يبق من معالمها سوى رواق، انظر الخريطة.

[72] ولد السيد عز الدين أحمد الصياد بالعراق سنة 574 هـ وتوفي بقرية متكين سنة 670 هـ.

الاستقرار في قرية الترنبا

ليس لدينا من الوثائق التاريخية ما يبين لنا ما كانت عليه قرية الترنبا سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ودينياً. ولكنها بحكم موقعها في سهول خصبة خضراء، وسط غابات من الأشجار المثمرة والممتدة من المعرة إلى سراقب وسرمين وإدلب وأريحا وجبل الزاوية، ذات مناخ معتدل، يقيها جبل الزاوية الرياح الباردة، ويصفو أديم سمائها من صفاء روح الجد إسماعيل وهذه هي النسمة الأزلية له - قدس سره - فاستقر فيها، وكانت موطن أنواره البارقة، وعجائبه الخارقة وكراماته الفائقة. وفي قرية الترنبا وقعت كرامة الكيل، واشتهر بها وسمي بالكيال، مع أنه حينما قدم إليها يحمل كنية الرفاعي، وهي كنية والده وأجداه. وكل عقبه المنتسبين إليه ومن ذريته، هم من الأسرة الكيالية الرفاعية.

ولنا وقفة عند اسم (الترنبا). فقد خطها الشيخ كامل الغزي: (طرمبة) [73] ولم يعلق عليها بشيء.

وقال خير الدين الأسدي: قرية (ترنبة) في إدلب، من الآرامية: تورنيتا وهي السروة، كما يرى الأب أرملة [74].

ورغم التحقيق الدقيق الذي أجريته، ودراستي المتواضعة، لقرى ولاية سرمين، لم أقف على تاريخ لقرية الترنبا. أو لاسم مشابه لها، فهل هي: ترمبا، أم طرمبا، أم طرأ عليها تحريف في اللفظ والكتابة، فهل هي: طرنمبا، أم ترنمبا، أم تورينمبا.

وأرى - في حكم الواقع - بأنها مزرعة صغيره تابعة لولاية سرمين، بدليل أن الكثير من أجدادنا السادة الكيالية، سكنوا سرمين وعاشوا فيها، وماتوا ودفنوا في أرضها، ومنهم من انتقل إلى حلب، أو إلى جهات أخرى.

---

[73] نهر الذهب، للغزي، صفحة 518 طبع المطبعة المارونية بحلب، لم يذكر تاريخ الطبع.

[74] موسوعة حلب المقارنة، المجلد الثاني صفحة 299، عن المشرق صفحة 185 الطبعة الأولى، جامعة حلب عام 1983م.

وحقق العلامة المطران جرجس شلحت الصديق الوفي كلمة (الترنبا) تحليلاً علمياً وانتهى إلى أنها قرية (العرش)، أو التي كانت مصيفاً للسلطان[75].

الديار الحلبية

لقد عاش الجد إسماعيل المرحلة الأولى من حياته في العراق، قبل ارتحاله إلى الديار الحلبية، واستقراره في قرية الترنبا. والمرحلة الثانية وهي التي قضاها في قريته لحين وفاته، رحمه الله تعالى.

المرحلة الأولى

ولد الجد إسماعيل في المرحلة الزمنية الأخيرة، في ظل الخلافة العباسية، وهي فترة الانحطاط من حكمهم وتسلط المماليك على السلطة. ومن المفيد أن نشير إلى أن آخر خلفاء بني العباس في بغداد، كان المستعصم بالله والذي تولى الخلافة في سنة 640هـ، ومات قتيلاً بيد هولاكو يوم عاشوراء سنة 656هـ، وبموته انقرضت الخلافة من بغداد [76].

في هذه المرحلة، وقع له أهم حدث روحي عظيم. وهو انه إثر ولادته، أتى به والده إلى حضرة جدّه الغوث الرفاعي، فدعا له ونفخ في فمه وقال له: نور جذبك يفيض على أهل المشرق والمغرب، اللهم بارك فيه وفي ذريته. وكان قد سبق أن بشر والده به، قائلاً: أبشرك بولد يملأ ذكره الأرض ويشتهر بكرامة خصه الله بها دون إخوته وبني عمه، ما سبقه بها أحد، ولا تصدر لغيره إلى يوم القيامة. وكان له من العمر خمس سنوات حين وفاة جده، رضي الله عنهم.

---

[75] تحقيق المرحوم العلامة جرجس شلحت، في ملحق هذه الرسالة.

[76] النجوم الزاهرة، لابن تغري بردى، صفحة 348.

ونشأ في قرية أم عبيدة، ودخل مدرسة أخيه نجم الدين الأخضر، وتعلم وتفّقه وتكمّل على يديه، إلى أن أصبح شيخاً عارفاً بعلوم الشريعة والحقيقة، حينئذ أمره بالترحال للديار الحلبية.

المرحلة الثانية

هي التي قضاها في قريته لحين وفاته رحمه الله تعالى. وأهم حدث فيها، بعد ارتحاله عن أسرته وأهله وعشيرته، وزيارته لابن عمه عز الدين أحمد الصياد في قرية متكين، وهو الذي أشار إليه بالاستقرار في قرية الترنبا والتي تقع إلى الشمال من متكين وعلى مسافة 32 كم وبالقرب من سرمين. وكانت القسمة الأزلية بأن تكون قرية الترنبا موطن: كرامة الكيل.

وفي قرية الترنبا ذاعت شهرته وظهرت أنواره البارقة وكراماته وأحواله الخارقة، حيث نشر أعلام الطريقة، وأخذ عليه الجم الغفير من أكابر حلب وأعيانها وتلك النواحي، وخَدَمه الصلحاء وتقصّده الناس من الديار الشامية والأقطار البعيدة يلتمسون بركاته ودعواته. فهل كانت هذه الإشارة من أخيه بالترحال، كي لا يشاهد هجوم هولاكو وجيوشه على بغداد وما حولها، وما أحدثوه من جرائم وويلات ذكرها المؤرخون، ولا ضرورة لسردها فهي معروفة ومشهورة. أم لأمر لا ندركه ولا نعلمه؟

المملكة الحلبية

لمحة خاطفة

لقد قسم الأوائل بلاد الشام إلى خمسة أقسام: فلسطين، وحوران، والغوطة، وحمص، وقنسرين: ومدنها العظمى: حلب، وحماه، وسرمين، وأنطاكية.

أما المملكة الحلبية: فإنها مملكة متسعة إلى الغاية. تشمل على مدن وقلاع، معاملات وقرى عديدة ... وأعظم مدنها حلب. وهي عذية وتشتمل على سور

محكم وقلعة محكمة. وبها جوامع ومدارس ومساجد ومزارات وعمائر حسنة، وأسواق وحمامات يطول وصفها، وهي باب الملك. ومن توابع حلب أيضاً: مدينة جعبر ومدينة الرحبة، وسيجر و (سرمين)، وإقليم الباب وإقليم كلس وعزاز وسيس [77].

وقد ازدهرت حلب تجارياً، فكانت رأس الخط التجاري الذي ينتهي إلى بغداد والبصرة وصارت مركز التجارة المحلية، ومنتهى خط التجارة العالمية الممتد بين أوروبا وأسيا وهكذا تمكنت حلب من التفوق على دمشق إلى حين. بينما استطاعت الاسكندرون وطرابلس أن تنتزعا من بيروت مرفأها التجاري. بل بقيت حلب حتى منتصف القرن السابع عشر، السوق التجارية للشرق الأدنى جملة ... وكان باستطاعة الشاري أن يبتاع من أسواق حلب مصنوعات العاج والحديد والنسيج المصبوغ والسجاد والخزف المطلي بالميناء (حلب، صفحة 210، 278، 318 لسوفاجية Sauvaget والدكتور فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان، الجزء الثاني طباعة دار الثقافة بيروت عام 1959).

وكانت الحياة الثقافية والدينية على مستوى رفيع، نظراً لوجود العديد من العلماء العاملين من قضاة ومفتين ومدرسين ولسنا في معرض البحث عن حلب، فقد درس تاريخها قديماً وحديثاً مؤرخون وعلماء آثار و ...

ويهمنا البحث في ولاية سرمين:

وسرمين، وقرية الترنبا تابعة لها، كانت مركز الولاية، وواليها جندي، وربما كان أمير عشيرة، ولها شهرة في التاريخ القديم، وهي حسنة كثيرة البساتين، وأكثر شجرها الزيتون، وبها يصنع الصابون الآجري ويجلب إلى مصر والشام، ويصنع

---

[77] مجاني الأدب في حدائق العرب للأب لويس شيخو اليسوعي، صفحة 218-218، طبعة 18 مصححة، مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت سنة 1900م. في ذكر الشام، ملخصاً عن كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك لخليل بن شاهين الظاهري. و(سيس) اسم بلدة شمالي كيليكية في أرمينية وتسمى اليوم كوزان باسم عشيرة تركمانية سكنت المنطقة، صفحة 433، المجلد الرابع، موسوعة حلب المقارنة، خير الدين الأسدي طبع جامعة حلب، عام 1403هـ - 1983م، الطبعة الأولى.

بها أيضاً الصابون المطيب لغسل الأيدي ويصبغونه بالحمرة والصفرة، ويصنع بها ثياب قطن حسان تنسب إليها [78].

وكانت بلدة عظيمة ذات أسواق ومصابن وخانات وحمامات، وسوق الحرير مشهور في سرمين وهو وقف على جامع الكيزواني الكائن في ذيل العقبة بحلب[79].

وسرمين موقع تجاري قديم وممر للقوافل التجارية والحجيج، وهي في متصف الطريق بين المعرة وحلب. وبين سرمين وحلب مسيرة يوم واحد، وهي في طرف جبل السماق وهو جبل أعمر الأرض وأعملها فلاحاً، ومن رآه رأى الاندلس، ولم يفرق بين فلاحتها وفلاحة الاندلس[80]. ومحاطة بأشجار كثيفة وهي مرتع لتنزه أمراء وسلاطين حلب[81]. وممر للقوافل المنطلقة من حلب إلى قنسرين وهي على بعد ثلاثة فراسخ من حلب.

ومن قنسرين إلى سرمين باتجاه نحو الغرب الجنوبي، حيث تسلك القوافل الطريق التالية قنسرين، شيخ الانصاري ثم الراموسة ومنها إلى خان طومان ثم إلى سرمين وتقدر المسافة بثلاث ساعات. والسبب في تحول سير القوافل إلى سرمين عوضاً عن الاتجاه نحو الجنوب هو أن الطريق غير آمن من اللصوص، وهم قبائل العربان التي كانت تعترض القوافل بالأذى والسلب[82].

وكانت مزدهرة اقتصادياً ومشهورة بصناعة الصابون ونسج الثياب[83] ومصدر إشعاع فكري في الفقه والتصوف والشعر والطب في العهد العثماني. ووصفها

---

78 الطباخ - أعلام النبلاء، الجزء 2 صفحة 133.

79 نهر الذهب، للغزي، صفحة 524.

80 الرحالة في محافظة ادلب، الأستاذ فائز قوصرة، صفحة 27 ، 35 ، 36 – الجزء الأول نقلاً عن ناصر خسرو علوي في كتابه: سفرنامة. وعن شيخ الربوة المتوفى 727هـ صفحة 38 مطبعة الشرق في حلب عام 1985م.

81 راجع تحقيق المرحوم المطران جرجس شلحت حول تحليل كلمة (الترمبا).

82 الأستاذ فائز قوصرة، المرجع نفسه صفحة 35.

83 ابن بطوطة، عام 725هـ - 1325م، القرن الرابع عشر .أ. قوصرة، صفحة 39.

الرحالة الهولندي راوولف: بأنها غابة كثيفة من أشجار الفستق[84] وفيها عدد كبير من الصهاريج والآبار المنقورة في الصخر بسبب عدم وجود ينابيع في هذه البقاع[85].

ومن الوفاء والاعتزاز ذكر المعمار الفنان المدعو حسن بن مفرح السرماني من أهالي بلدة سرمين، والذي شاد مئذنة الجامع الأموي الكبير في حلب بعد خرابها، وهو التجديد الذي حدث في عهد السلطان السلجوقي ملك شاه بن ألب أرسلان ونائبه في حلب سعيد آق سنقر وبإشراف القاضي محمد يحيى الخشاب عام 483هـ - 1090م [86].

المملكة الحلبية في حياة الجد إسماعيل

إن الذي يهمنا في هذ التحقيق هو الحياة السياسية العامة في المملكة الحلبية في حياة الجد إسماعيل من عام 645هـ حتى وفاته عام 685هـ. فالدول التي مرت على مملكة حلب بعد الأمويين والعباسيين:

- الدولة الطولونية من سنة: 256 – 333هـ.
- الدولة الحمدانية من سنة: 333 – 414هـ.
- الدولة المرداسية من سنة 414 – 478هـ.
- الدولة السلجوقية من سنة 479 – 784هـ.

[84] الأستاذ فائز قوصرة، المرجع نفسه صفحة 40.

[85] الأستاذ فائز قوصرة، صفحة 40 عن بوركهارد.

[86] البحاثة الأستاذ محمد كامل فارس، المستشار الفني لجمعية العاديات بحلب والخبير القانوني في الخطوط. في دراسة عن الخط الكوفي المورق في معالم حلب الأثرية. وقام بتحقيق علمي وفني حيث أثبت أسم المعمار الفنان كما ذكر أعلاء، خلافاً لما أورده الدكتور أسعد طلس بان اسمه عند قراءته له: حسن بن معاذ الساماني، ولقراءة الطباخ حسن بن مقرى السرميني، لخائم المئذنة المنقوش تحت الزنار الأسفل من الضلع الجنوبية، صفحة 261، 262، مجلة عاديات حلب، الكتاب الأول: 1975 طبع جامعة حلب، وترجمة (آق سنقر الشاهين الابيض، ولقبه: قسيم الدولة، المرجع نفسه، صفحة 260.

- دولة الجراكسة من سنة 784 – 922هـ (الاحتلال العثماني) [87].

والسلاجقة ومعناها: القوس الجديد، وقد حكموا على أنقاض الدولة العباسية مدة 270 سنة من سنة 419 إلى 699هـ وهم 20 فرعاً، وأشهرهم الفرع الزنكي، وهم والعثمانيون من أصل واحد. وفروع آل سلجوق، والتي حكمت حلب، هي أطول الفروع عمراً [88].

ويقول (لاروس) في ذكر السلاجقة ما ترجمته:

سلالة حاكمة تركية حكمت الشرق الاسلامي من القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر الميلادي، وشمل حكمها البلاد الآتية: ايران والعراق وسورية وارمينية وآسيا الصغرى. ثم تضعضعت في القرن الثاني عشر الميلادي، عدا سلطنة الروم وهي الوحيدة التي دامت في الأناضول حتى عام 1308م[89].

وعاش الجد إسماعيل حياته الزمنية في (الترنبا) في حكم المماليك الذين حكموا مصر وسورية من عام 1250-1517م ويقابلها 647-922هـ وعرّف (لاروس) الفرنسي المماليك، ما ترجمته:

سلالة حاكمة حكمت مصر وسورية من عام 1250-1517م، حيث كانت السلاطين الحاكمة تُنتخب من بين الجنود، وخاصة من العساكر العبيد المنخرطين في الجندية [90].

وخضعت بلاد الشام ومصر لدولة المماليك، أي لدولة مماليك صلاح الدين الأيوبي ولأولاده من بعده، ويعرفون بالمماليك البحرية نسبة إلى بحيرة في أراضي مصر، وكان الباعث على ملكهم ضعف أعقاب صلاح الدين وبلوغ دولتهم طور الشيخوخة والهرم. وابتدأت دولتهم من سنة 648هـ وانتهت سنة 784هـ، وكانت

---

[87] الطباخ، أعلام النبلاء، جزء أول صفحة 445 وجزء ثاني صفحة 440، طبع 1988، دار القلم العربي، حلب.

[88] نهر الذهب، للغزي، صفحة 127 الجزء 3.

[89] معجم LAROUSSE الفرنسي، صفحة 1673، طبع عام 1993.

[90] معجم LAROUSSE الفرنسي، صفحة 1495، والمملوك: العبد، والجمع مماليك، المنجد صفحة 864.

مدتها: 136 سنة وعددهم 25 ملكاً. وأعقب هؤلاء المماليك، الجراكسة، وابتداء سلطانهم في مصر والشام سنة 784هـ وانقرضت سنة 922هـ، وكانت مدتها: 138 سنة، وعدد ملوكها 23 ملكاً، وآخرهم كان قانصوه الغوري وقتل في مرج دابق، ثم دخل السلطان سليم حلب سنة 922هـ[91].

يتضح من هذا العرض التاريخي السريع كيف تغلب ماليك الدولة الأيوبية على الحكم وأصبحوا أصحاب القوة والسيطرة. وقسم المؤرخون العهد المملوكي إلى قسمين رئيسين: - الأول: عصر القوة والتقدم والحضارة. والثاني: عصر التقهقر والانحطاط الذي انتهى بالاحتلال العثماني لبلاد الشام ومصر.

ففي العهد الأول صَدّوا موجات التتر وتغلبوا على السلاجقة.

أما في الفترة الثانية، إثر غزو تيمورلنك لبلاد الشام، أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، فقد دب في حكمهم الانحطاط، وخضعت الديار الحلبية إلى الحكم العثماني. وظل المماليك في دولتهم طبقة مميزة، لم يختلطوا بالشعب ولم يحاولوا ذلك، بل ظلوا هم الطبقة الحاكمة عسكرياً وسياسياً وبيدهم السلطة والحكم والسياسة، وتركوا المناصب الدينية والقضائية لأفراد الشعب. ولانشغال سلاطينهم بالحرب فقد أوجد المماليك منصباً مهماً كل الأهمية وهو منصب نائب السلطان، ويسمى كافل المملكة. إلا أن الاقطاع كان منتشراً في دولة المماليك، والاقطاع العسكري كان الأساس. فقد أقطع سلاطين المماليك فرسانهم وضباطهم وجنودهم اقطاعات تتناسب مع أهميتهم، وأصبحت طبقة عسكرية حاكمة هي الفئة المُقطعة، وبقية الشعب تقدم الفائض من الحاصلات إلى المقطعين، وتفاوت عدد الاقطاعات حسب الأهواء[92].

---

[91] نهر الذهب، للغزي، صفحة 240، 241، 242 الجزء الثالث.

[92] الدكتور ماهر حمادة: الوثائق السياسية والادارة للعصر المملوكي، من 656-922هـ، 1258-1516م. منشورات الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1400هـ - 1980م صفحة 29 وصفحة 50.

الحياة السياسية العامة

لم يكن العرض الذي سبق ذكره سوى دلالة على حكم المماليك خلال حياة الجّد في قريته، وليس القصد في بحثنا هذا، ترجمة هؤلاء وإنما أردت الاشارة إلى الحياة السياسية المضطربة التي رافقت حكم المماليك، والغارات التي كان يقوم بها خصومهم وأعداؤهم على بلادهم، ورد المماليك على من اعتدى عليهم. وكانت هذه الحروب لا تنقطع والويل للفريق الخاسر، حيث تباح البلاد للفاتح الغازي نهباً وسلباً وتخريباً وقتلا وسبياً، وكانت هذه الغارات لا ترحم وتأخذ الأخضر واليابس[93].

ففي عام 1258م - 656هـ، قام المغول بقيادة هولاكو من فارس واستولى على بغداد، وقتل الخليفة تحت سنابك خيله، وفي العام التالي اجتاح الجزيرة العليا وأباد المدن في طريقه الواحدة تلو الأخرى زارعاً الهلع مما دفع السكان إلى إخلاء البلاد، قبل وصوله هائمين على وجوههم. وفي عام 1260م، 659هـ، اجتاح هولاكو سورية الشمالية بناء على طلب ملك أرمينيا الصغرى (هاتوم). وفي 24 كانون الثاني من العام نفسه فتح حلب بعد حصار دام عدة أيام وظلت المدينة خلال اسبوع كامل تحت رحمة المجازر والنهب والحرائق[94].

ولم تخل سرمين عام 536هـ من غارات الافرنج الرهيبة حينما دخلوها فخربوا ونهبوا ثم تحولوا إلى جبل السماق[95].

وقال أبو الفداء: وفي هذه السنة 656هـ قصد هولاكو ملك التتر بغداد وملكها في العشرين من المحرم، وقتل الخليفة المستعصم، ودام القتل والنهب في بغداد

---

[93] الطباخ، أعلام النبلاء، جزء أول، صفحة 432.
[94] د. عبد الرحمن حميدة، محافظة حلب، صفحة 42.
[95] الطباخ، أعلام النبلاء، جزء أول، صفحة 432.

نحو أربعين يوما، ثم نودى بالأمان[96]. وليس حظ حلب أقل من ذلك فإثر استيلاء التتر على حلب قتل فيها أكثر من الذي قتل ببغداد[97].

ومن أراد الاستزادة في ذلك تاريخياً، فليقرأ رسالة هولاكو إلى الملك الناصر صاحب حلب سنة 657هـ، والتي يطلب فيها تسليم مدينة حلب، وفيها وصف رهيب لما سيحل بها في حالة عدم الاستسلام، وقد ردّ عليه الملك الناصر، وكلا الرسالتين أثبتهما الطباخ في كتابه أعلام النبلاء، فليرجع إليهما من شاء[98].

ونتيجة لهذه الحياة السياسية المضطربة والقلقة، معاناة شديدة في الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية، وخوف ورعب ماثل أمام المواطنين، وفقدان للمواد الغذائية وغلاء رهيب في بعضها، وقد بيع اللحم بالرطل الحلبي بثمانية دراهم ورطل الخبز بخمسة دراهم، ومكّوك القمح بأربعمائة درهم، والمكوك يساوي: 25984 درهماً [99]. كما زاد الغلاء الفاحش والمجاعات وأكل الناس لحوم الموتى[100].

وتتابع الاقطاع للقرى والنواحي والسلب والنهب، حتى يئس الناس من الظلم والمعاناة. وقد قال أبو الفداء: وفي هذه السنة 658هـ، استقر الملك السعيد: علي بن بدر الدين لؤلؤ، في نيابة حلب، وسار سيرة رديئة، وكان دأبه التحيل على أخذ مال الرعية ... وهجم التتر ثانية على حلب، وقُبض عليه وهددوه بالقتل، وشرطوا عليه أن يسلم إليهم جميع ما حصله من الأموال، فقام إلى ساحة داره وحفر تحت أشجار النارنج وأخرج أموالا كثيرة ذكر أنها كانت تزيد على أربعين ألف دينار [101].

---

[96] الطباخ، أعلام النبلاء، جزء 2، صفحة 224.
[97] الطباخ، أعلام النبلاء، جزء 2، صفحة 232.
[98] الطباخ، أعلام النبلاء، جزء 2، صفحة 227 وأبو الفرج الملطي في تاريخه: مختصر الدول.
[99] الطباخ، أعلام النبلاء، جزء 2، صفحة 254، عام 660هـ.
[100] نهر الذهب، للغزي، صفحة 165، جزء 1، سنة 659هـ.
[101] الطباخ، أعلام النبلاء، جزء 2، صفحة 240.

ولم يكتف التتر بل أعادوا الكرة ثانية، وقد كانت واقعة عظيمة بينهم وبين الملك المنصور: قلاوون الألفي، وكان رأس التتار: منكو تمر أخ أيغا [102]. فنهب البلاد وأحرق الضياع وقتل الرعية وآذى البرية ورجع إلى بلاده[103]. ويتولى المملوك حاضرة حلب، ويتولى خارج الحاضرة نائب عنه، فهناك نيابة الكخنا وكركر وبهسني، وعينتاب والراوندان والدرباك وبغراس والقصير والشغر وبكاس وشيزر [104]. ومنهم أرباب السيوف خارج حلب الولاة: مثل ولاية سرمين، وواليها في الغالب جندي، وربما كان أمير عشيرة [105] وكذلك ولاية المعرة [106]، وأما نيابة قلعة الروم فبمرسوم شريف [107].



[102] ابن هولاكو، ولابد من التنويه بأن: ألبغا، نائب الملك الظاهر المملوكي، وكتبغا: ابن نوين صاحب عين جالوت، نائب هولاكو، وكريغا: صاحب (امير) الموصل، ولا يخفى أن جنكيزخان أعقب ابنه تولي خان، وهذا أعقب هولاكو.

[103] الطباخ، أعلام النبلاء، جزء أول، صفحة 269.

[104] القلقشندي، صبح الاعشي، جزء 4 صفحة 226، طبع القاهرة 1914م – 1332هـ.

[105] المرجع أعلاه، صفحة 230.

[106] المرجع أعلاه، صفحة 239.

[107] المرجع أعلاه، صفحة 226.

الناحية الجغرافية

أما من الناحية الجغرافية، فمملكة حلب، تمتد سهولها من الناحية الشمالية منها حتى سهول حماه جنوباً، وليس المقصود في هنا البحث دراسة جغرافية هذه المملكة فهي معلومة لدى الجميع. أما ما يجب الاشارة إليه وبايجاز وصف المدن والقرى التي استقرت فيها فروع الجد إسماعيل، وهي المنطقة الشمالية الغربية من ولاية سرمين.

ففي ترحال الجد إسماعيل من الديار الشامية باتجاه الديار الحلبية وسلوكه طريق القوافل والحجيج، وبعد سهول حماه تمتد سهول ملكة حلب، حيث تكون أولى محطات ترحاله، قرية متكين[108] من أعمال معرة النعمان، وفيها يقيم ابن عمه: عز الدين أحمد الصياد وهو الجد الأعلى للسادة الصيادية [109] وخان شيخون[110] قرب متكين، وتقع المعرة على مسافة 25 كم من متكين إلى

---

108 انظر رقم 71.

109 سنذكر ترجمته فيما بعد.

110 خان شيخون: عقدة ملتقى عدة طرق، وشيخون واقعة بين المعرة وحماه الشام معروفة بخان شيخون. وأحدث بجوار الخان قصبة وهي عبارة عن 200 بيت وبها جامع لطيف وآبار ماء عذب. وسكانها جلهم من شجعان الجندية وقاية لأبناء السبيل من أضرار قطاع الطريق والعشائر المتوحشة. انظر إذا شئت وصف الخان وتاريخه في تنوير الأبصار، للصيادي، صفحة 5.

ويقول الأسدي: خان شيخون (من قرى حلب) في المعرة، اسمها القديم اشخاني ASHANIE يرقى عهدها إلى القرن الثاني ق.م. وهي من قرى حلب الجنوبية الكبيرة، وهي قرية أبي الهدي الصيادي (موسوعة الأسدي، المجلد 3 صفحة 301. ويقول الغزي: اسمها (خالس)، جزء 1 صفحة 421. وتقول دعد حكيم: كانت أهمية الخانات عظيمة في الحياة الاقتصادية وفي طرق المواصلات، ولذلك كان لها أهمية عظمى جعلت الملوك يحفلون بها ويهتمون بأمرها ويشيدون أبنيتها. ويرغب القناصل سكنى الخان، لأن القناصل هم تجار أيضاً، زد عليه أنه أمين بعيد عن خطر اللصوص والنهب والغارات، فهو حصين ببنائه وببابه، ذي المتاريس والأقفال هذا في خانات البلد. أما خانات الطرق للقوافل، فمراعى فيها أن تبتعد عن بعضها مسيرة مرحلة، والمرحلة نحو ثماني ساعات ومراعى فيها الحصانة. (موسوعة الاسدي، المجلد الثالث، صفحة 299-300.

والرحالة Thevenot يعطينا تاريخ مروره في خان شيخون عام: 1660م – 1074هـ ويقول: يقع الخان في وسط مناطق زراعية واسعة وفيه خمسون جندياً من المشاة وعشرة فرسان لتوفير الحماية اللازمة للخان والمناطق المجاورة له من خطر الغارات البدوية. (أ. قوصرة، صفحة 199). وحاكمه الاداري يسمى (آغا) ويتبع ولاية باشا حلب، وانه منطقة حماية وحراسة لحدود الولاية في الجنوب الغربي. وكلمة (أغا) تركية وتعني: ضابط في بلاط السلطان العثماني عن (لاروس الفرنسي صفحة 46، طبع:1993). وفي موسوعة حلب المقارنة للأسدي، أنها لقب احترام فوضوي التحديد، استمدها الأتراك من السلجوقيون، والسلجوقيون من المغول (رئيس، سيد، رئيس ضباط، الأخ الاكبر) صفحة 16 جزء 1. ويقول الرحالة Pocock حين مروره بخان شيخون عام: 1737م – 1150هـ أنه شاهد حوالي خمسين حصاناً عربياً تتجه نحو القافلة، وأعد كل منا سلاحه في حالة استعداد، واتضح أنهم من الجنود الخاضعين للسلطة لحماية القوافل (قوصرة، صفحة 202) ويبدو أن هذا الحال استقر على ما هو عليه معرضا لقطاع الطرق وسلب القوافل حتى عام 1232هـ، حيث يشير الشيخ محمد بن عمر الكيالي، حين مروره مع شيخه الأستاذ الشيخ إسماعيل الكيالي الحلبي بن الشيخ عبد الجواد، من خان شيخون، بتاريخ: 25 جمادى الأولى سنة 1232هـ - 1817م، بأنهم لم ينزلوا في الخان خيفة قطاع الطرق من

الشمال. وتمتد السهول الفسيحة من خان شيخون إلى الجهة الشمالية والغربية لمملكة حلب.

والمحطة الثانية هي المعرة، وكانت مدينة كبيرة مشتملة على كثير من المغاير[111] وكانت معروفة عند العرب بذات القصور، ويُذكر بأن أكثر أراضيها موات للخوف من الاعراب الرّحل[112].

ووصف المعرة: جمال الدين علي بن أبي المنصور بقوله: والمعرة مدينة صغيرة حسنة أكثر شجرها التين والزيتون والفستق ومنها يُحمل إلى مصر والشام. وبخارجها وعلى بعد فرسخ منها قبر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، ولا زاوية عليه وبلا خديم له[113]. ولما مرّ الرحالة أبي الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الاندلسي في سنة 580هـ. في الديار الحلبية قال: ورأينا عن يمين طريقنا مقدار فرسخين يوم الجمعة المذكورة بلاد (المعرة)، وهي سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكة، ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين، وهي من أخصب بلاد الله وأكثرها رزقاً [114].

ثم يتوجه الجد إسماعيل إلى قرية الترنبا حيث ألقى عصا الترحال فيها واستقر بها، وهي قرية في الجهة الجنوبية من سرمين وعلى بعد 6 كم وفي الجهة الغربية من سراقب وعلى بعد 5 كم عنها. وتقع في هنا السهل الفسيح حيث ينتهي في أقدام جبل الزاوية من الجهة الشرقية. وكانت غابة من الأشجار حتى غدت مصيفاً لسلاطين حلب.

العربان (عن الحلة السنية للرحلة الشامية، مخطوط). ويقول: ... ومررنا خارج خان شيخون وجاوزنا الخان، ونزلنا للراحة والفطور على بئر ماء في قناة، ثم ركبنا في ذلك الأوان، ونحن في غاية الخوف من العربان.

[111] المعرة: سريانية، المغارة، المطران شلحت، صفحة 80.

[112] نهر الذهب، للغزي، صفحة 417، جزء 1.

[113] الطباخ، أعلام النبلاء، جزء 2، صفحة 307.

[114] الطباخ، أعلام النبلاء، جزء 2، صفحة 133.

وسرمين كانت مركز الولاية، وواليها جندي كما رأينا، وهي حسنة كثيرة البساتين وأكثر شجرها الزيتون، وبها يصنع الصابون وكانت مزدهرة اقتصاديا [115].

وتقع مدينة ادلب في الجهة الغربية من سرمين وعلى بعد 8 كم عنها، وهي ممر للقوافل التجارية وللحجيج أيضاً من النصارى والمسلمين بسبب خلوها من الجبال والممرات الوعرة، وهي ذات سهول حمراء وخصبة وخضرة دائمة. يكثر فيها الزيتون وشجر الكرم والتين والعنب، وينجب في حقولها الحنطة والشعير والقطن والسمسم وأنواع الزروع الشتوية والصيفية [116]. وتشكل حلقة وصل بين حلب وقنسرين والمعرة أو الطريق الآخر المتجه غرباً من حلب - قنسرين – سرمين - ادلب، أو يتفرع من سراقب - سرمين إلى الغرب الشمالي باتجاه ناحية الجزر[117] إلى حارم ثم انطاكية أو الاسكندرونة، أو إلى الروج وبالتالي جسر الشغور [118].

وتشتهر بخاناتها الكثيرة إلا أنها قليلة المياه وفيها حياة اجتماعية دينية وثقافية جيدة، كما تنتشر فيها صناعة الصابون. ويتضح من كل ذلك أن إدلب موجودة منذ عهد المماليك كبلدة عامرة [119] وصارت مركز مديرية تابعة لقضاء ريحا، ثم صارت مركز قضاء، وجعلت ريحا مركز مديرية تابعة لها [120]. ولسنا في مجال تعداد ميزات إدلب وتاريخها وأوابدها واقتصادها ... ولكن القصد هو أنها كانت بلدة عامرة في حياة الجد إسماعيل.

ولنا وقفة في تسمية إدلب. فيقول الغزي: أن الاسم كلداني، ويقول الأسدي: اسمها - كما نرى نحن - من الآرامية أسوة بكل مكان عرف قبل الفتح الإسلامي

---

[115] سرمين: من قرى حلب في إدلب من الآرامية: معناها المشرومون، كما يرى الاب أرملة في المشرق، س 38، صفحة 188، الأسدي، الموسوعة مجلد 4 صفحة 343.

[116] نهر الذهب، للغزي، صفحة 519، جزء 1.

[117] كورة من كور حلب، ياقوت الحموي، قوصرة، صفحة 36، المنطقة التي تقع فيها ناحية معرة مصرين.

[118] قوصرة، جزء 1، صفحة 36.

[119] قوصرة، جزء 1، صفحة 75.

[120] الغزي، جزء 1، صفحة 519، وريحا: سريانية تعني الرائحة، شلحت، صفحة 78، الأسماء السريانية.

مركب من (ار): هواء و(د): أداة بين المضاف والمضاف إليه، شأن الآرامية، بعدها (لب): القلب، أي هواء القلب، أي ينعش القلب. وحقيقتها كذلك. وقد تواتر عن ثقات أهلها أنها كانت تدعى (وادي لب). وضبطها الأستاذ الشيخ شعيب الكيالي في بعض مؤلفاته بالذال المعجمة (اذلب)[121]. ويقوم جبل الزاوية جنوبي إدلب، وفيه بلدة ريحا ويمتد حتى سهول معرة النعمان.

وفي هذه السهول الواسعة الخضراء والأشجار المثمرة الجميلة تقع قرية (الترنبا) وكتبها الغزي (طرمبة) [122].

ولهذه الأسباب المذكورة نستطيع أن ندرك سر استقرار الجد: إسماعيل الكيالي الرابع في إدلب وإليه تنتسب الأسرة الكيالية في إدلب وكان يقيم في الزاوية الكيالية فيها، وهو مولود في قرية (كفردريان) ودفين زاويته في إدلب عام 1163هـ -1750م [123].

---

121 الأسدي. المجلد الأول. الموسوعة

122 نهر الذهب، للغزي، صفحة 518، جزء 1.

123 كفر دريان: سريانية، معناها: قرية المذري، شلحت، صفحة 69.

الفصل السابع

كرامة الكيل[124]

البشرى بها قبل ولادته

قال صاحب روح الإكسير: ..... وإن سيدنا السيد أحمد الرفاعي الكبير، قال يوماً للسيد علي (مهذب الدولة): أبشرك بولد يملأ ذكره الأرض ويشتهر بكرامة خصه الله بها دون اخوته وبني عمه، ما سبقه بها أحد ولا تصدر لغيره إلى يوم القيامة.

وهي كرامة الكيل واشتهاره بها شرقاً وغرباً، وهي كرامة عظيمة ما سبقه بها أحد قبله ولا بعده.

الدعاء له بعد ولادته

ثم أنه لما ولد أتى به والده إلى حضرة جده الغوث الرفاعي فدعا له ونفخ في فمه وقال له: نور جذبك يفيض على أهل الشرق والمغرب اللهم بارك فيه وفي ذريته. فأثرت دعوة جده بأن جعله الله مجذوباً [125] من صغره عن الدنيا، ونشأ عارفاً بأحكام الكتاب والسنة وتفقه على مذهب الشافعي، وأخذ التصوف وعلم الطريقة، ولبس الخرقة الرفاعية عن أبيه وجده، وتكمل على يد أخيه شيخ الطريقة ومعدن الحقيقة القطب الأمجد نجم الدين أحمد، فقام بها وأذن في ترحاله إلى الديار الحلبية واستقر بقرية من قرى سرمين يقال لها (الترنبا).

لقد دعا له جده السيد أحمد الرفاعي الكبير وكان وليداً، ونفخ في فيه، حيث لقنه الأسرار الإلهية، وخاطبه قائلاً: نور جذبك يفيض ... اللهم بارك فيه وفي ذريته ...

---

124 الكرامة: أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة، المنجد صفحة 740.

125 الجذب: مدّك الشيء. المدّ - لسان العرب صفحة 258. جذبه ضد دفعه عنه، المنجد 86.

ولنا وقفة في قول جده له: نور، فالنور في اصطلاحات الصوفيين هو: نور الأنوار، وهو الحق سبحانه وتعالى. وأنه تعالى النور ولا نور سواه، وأنه كل الأنوار، وأنه النور الكلي وحده لا شريك له. وقال تعالى: اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ[126] ، فالنور الحق هو الذي بيده الخلق والأمر، ومنه الإنارة أولاً، والإدامة ثانياً، فلا شركة لأحد معه في حقيقة هذا الاسم ولا في استحقاق هذا الاسم إلا من حيث تسميته به. ويتفضل بفضل المالك على عبده، إذا أعطاه مالاً ثم سماه مالكاً. وإذا انكشف للعبد هذه الحقيقة، علم أنه وماله لمالكه على التفرد، لا شريك له فيه اصلاً البتة[127].

وقد خص الله عز وجل الأنبياء وبعض الأولياء بالروح القدسي وجعله نوراً يهدي به من يشاء من عباده. قال في التنزيل العزيز: وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ [128].

وفي الأولياء من يكاد نوره يشرق حتى يكاد يستغني عن مدد الأنبياء. وفي الأنبياء من يكاد ضوؤه يستغني عن مدد الملائكة، وهو الروح القدسي النبوي المنسوب إلى الأولياء، إذا كان في غاية الشروق والصفاء [129]. ولما دعا القطب الرفاعي للجد إسماعيل توسل بجده الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم وهو السراج المنير بأن يهب الله عز وجل نوراً لهذا الوليد من عظيم أنواره ليكون صاحب شأن في مستقبل أيامه، وهو نفسه الذي بشر به قبل ولادته، وأنه سيملأ ذكره الأرض ويشتهر بكرامة خصه الله بها، ما سبقه بها أحد، ولا تصدر لغيره إلى يوم القيامة. فإذا كان منبع الأنوار كلها من النور الأول الحق، كما سبق، فبالحري

---

126 سورة النور، الآية 35.

127 الامام الغزالي: مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار، صفحة 38، شرح وتحقيق الشيخ عبد العزيز عز الدين السيروان، طبع دار الإيمان، دمشق 1411هـ - 1990م.

128 سورة الشورى، الآية 52.

129 المرجع نفسه صفحة 72.

أن يعتقد كل موحد أن " وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ "[130]. وقوله عليه الصلاة السلام: إن لله سبعين حجاباً من نور وظلمة، وإنه لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره. والحديث رواه مسلم في صحيحه بلفظ: إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل النهار قبل الليل، وعمل الليل قبل النهار، حجابه نور لو كشف طبقها، لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره، واضع يده لمسيئ الليل ليتوب بالنهار، ومسيئ النهار ليتوب بالليل، حتى تطلع الشمس من مغربها [131].

ثم أضحى الجد مجذوباً عن الدنيا. ويقول سري السقطي: إن الله تعالى سلب الدنيا عن أوليائه، وحماها عن أصفيائه، وأخرجها من قلوب وداده لأنه لم يرضها لهم[132]. وأصبح عارفاً بالله والعارف هو من أشهده الله ذاته وصفاته وأسماءه وأفعاله، والمعرفة حال تحدث عن شهوده. وفي اصطلاح الشيخ محي الدين بن عربي: هو من أشهده الرب عليه.

والمعرفة بالله: صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته، فلا يطلقون العارف إلا على من توالى عليه العلم بالله وصفاته والنظر في مصنوعاته، وغلب عليه ذلك بحيث صار حالاً له، حتى قالوا: من عرف الله كلّ لسانه، أي شغلته معرفته بالله تعالى عن ذكر غيره. ويقول أبو عثمان سعيد المغربي: العارف تضيء له أنوار العلم، فتبصر به عجائب الغيب.

وإن الله سبحانه وتعالى خص المؤمنين ببصائر وأنوار بها يتفرسون، وهي في الحقيقة معارف. وعليه يحمل قوله صلى الله عليه وسلم فإنه ينظر بنور الله،

[130] المرجع نفسه صفحة 74.

[131] الغزالي: مشكاة الانوار، صفحة 18 وكتاب التوصية، ابن خزيمة صفحة 19.

[132] أبو الحسن - سري بن المغلسّ السقطي (توفي 253هـ - 867م)، خال الجنيد وأستاذه وتلميذ معروف الكرخي. وكان وحيد زمانه في الورع وأحوال السنة وعلوم التوحيد.

أي بعلم وبصيرة يخصه الله تعالى بهما، ويفرده بهما من دون أشكاله. وعلى هذا فإن أرباب البصائر ما رأوا شيئاً إلا رأوا الله معه.

وربما زاد على هذا بعضهم فقال: ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله، لأن منهم من يرى الأشياء به، ومنهم من يرى الأشياء فيراه بالأشياء، وإلى الأول الإشارة بقوله عز وجل: أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [133]، وإلى الثاني الإشارة بقوله عز وجل: سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ [134]. فالأول صاحب مشاهدة، والثاني صاحب استدلال بآياته عليه، والأول: درجة الصديقين، والثاني: درجة العلماء الراسخين. وليس بعدهما إلا درجة الغافلين المحجوبين.

قال أحمد بن مسروق: دخلت على شيخ من أصحابنا أدعوه فوجدته على حال رثة، فقلت في نفسي، من أين يرتفق هذا الشيخ؟ فقال: يا أبا العباس، دع عنك هذه الخواطر الدنيئة فإن لله ألطافا خفية.

وقال الزبيدي: كنت في مسجد ببغداد مع جماعة من الفقراء فلم يفتح علينا بشيء أياماً فأتيت إبراهيم الخواص لأساله شيئا، فلما وقع بصره عليّ قال: الحاجة التي جئت لأجلها يعلمها الله تعالى أم لا؟ فقلت بلى، فقال: اسكت ولا تبدها لمخلوق، فرجعت ولم ألبث قليلاً حتى فتح علينا بما فوق الكفاية.

فلهذا قيل: فراسة المريدين تكون ظناً يوجب تحقيقاً، وفراسة العارفين تحقيق يوجب حقيقة، فإذا صحت الفراسة ارتقى صاحبها إلى المشاهدة. وقال بعضهم في قوله تعالى: أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ[135]، أي ميت الذهن فأحياه الله تعالى بنور الفراسة وجعل له نور التجلي والمشاهدة لا يكون كمن يمشي بين أهل الغفلة غافلاً.

---

[133] سورة فصلت، الآية 53.

[134] سورة فصلت، الآية 53.

[135] سورة الانعام، الآية 122.

أليس السبب البعيد لكرامة الجد هو ذلك البيت الديني والروحي الذي عاش وترعرع فيه. والجو العام للأسرة الرفاعية في أذكارها وأورادها وصلواتها وأدعيتها، وهي محاطة ببركات جده لأمه القطب السيد أحمد الرفاعي.

ولا شك بأن السبب القريب هو انقطاعه لوحده في تلك القرية مخلصاً في عبادته، داعياً إلى الله تعالى في سره وعلانيته، منقطعاً للعبادة لا ناصر له إلا رب الأرباب.

هذه الأسباب والصفات، هي التي هيأت كرامة الكيل، وقد تمت على يديه بأمر من الله جل وعلا.

واقعة اشتهاره بالكيل

قال صاحب روح الإكسير: ومن مناقبه رضي الله عنه اشتهاره بالكيل. الكرامة العظيمة التي بشّر بها والده جّده الغوث، وهو أنه كان زاهداً في دنياه لا يدخر قوتاً، واشتهر بالعبادة والنسك والصلاح. وكان بعض عرب عنزة، يأتون في كل عام يشترون القمح من القرية المذكورة، فأتوا على حسب عادتهم ليشتروا منها وكانت السنة مجدبة جداً، فأتى بعض جهّال القرية وقالوا للوفد المقبل ادخلوا هذه الدار تجدوا مطلوبكم، فدلّوهم على منزل الشيخ قدّس سره، فدخلوا وطلبوا شراء القمح، ففهم الشيخ ذلك، وأن المسبب لدخولهم بعض أهل القرية، وعلم أن جماعة أهل القرية ليس عندهم قمح يكفي الوفد هذا، فقام وفتح باب البيت وكان مغلقا، فخرج القمح مدلقاً من الباب. فقال لهم هيا خذوا مطلوبكم، قدموا اكتالوا لبعضكم بعضاً ما تريدونه فقالوا نحن لا نكتال بأيدينا، بل صاحب الرزق يكتال لنا أو يأمر أحداً يتكال، ورموا الكيل في الأرض، فصاح سيدنا إسماعيل في الكيل وقال: اكتل يا مبارك بإذن الله وبهمة جدي أبي العلمين، فصار الكيل يكتال بنفسه وهم يفتحون رحالهم، وليس عليهم إلا مسك الرحال وتقديمها. إلى أن اكتفى القوم بأجمعهم، وصاح في الكيل: قف يا مبارك فوقف. فأقبل أهل

القرية يقبلون أقدامه على ما شوهد من هذه الكرامة العظيمة، واشتهر بالكيّال، قدّس سره العزيز.

وقال صاحب عقود اللآلي: حين ترجم القطب إسماعيل، بسبب شهرته بالكيال: أن ألبغا مملوك الملك جاء إلى قرية الترنبا لاستيفاء حقوق السلطان وكانت سنة ممحلة، فأكثر الجور على أهل الترنبا. فناداه السيد إسماعيل وقال له يا هذا، كم تريد من أهل القرية، فقال كذا إردب[136] من القمح. فأمر الشيخ أتباعه أن يسدوا فم الخليات التي يوضع فيها القمح فسدوها، والعامل الظاهري ينظر، ثم أمر بفتح فم الخليات ففتحت، فتدفق القمح حتى ملأ المكان، وأخذ الكيل بيده وضربه بالقمح وقال: اكتل بإذن الله فصار يكتال بنفسه حتى وفى المطلوب. فكشف العامل الظاهري رأسه أمام الشيخ وقبّل الأرض. وبعد ذلك، اشتهر بالكيّال، رضي الله عنه. وتوفي وله من العمر 112 سنة.

وهو التحقيق الذي أخذ به العلامة الطبيب عبد الرحمن الكيالي، رحمه الله في الشجرة الموجودة لديه.

ويتضح بأن الكرامة كانت لواقعتين متصلتين:

الأولى: كرامة تدفق الحبوب من الخليات وملء هذا العدد الكبير من الأوعية.

الثانية: كرامة الكيل. وقد باشر القيام مهمة الكيل، الكيلُ بنفسه دون مساعدة خارجية من أحد، حتى وفى المطلوب.

ولما كان اختلاف السبب ين الواقعتين والروايتين، لا يغير شيئاً في النتيجة التي انتهت إليها كرامة الكيل، وصحة وقوعها.

[136] الإردب، 24 صاعاً. وفي الصفحة 215 من لسان العرب في كلمة صوع، الصاع: مكيال لأهل المدينة، يأخذ أربعة أمداد، وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يغتسل بالصاع ويتوضأ بالمدّ. والمدّ: مختلف فيه، فقيل هو رطل وثلث بالعراقي وبه يقول الشافعي وفقهاء الحجاز. فيكون الصاع: خمسة أرطال وثلثا، على رأيهم، وقيل هو رطلان، وبه أخذ أبو حنيفة وفقهاء العراق فيكون الصاع: ثمانية أرطال على رأيهم.

ولما كان لكل نتيجة عظيمة سبب عظيم، ولو لم يكن السبب النافع لها، يستحق هذه الكرامة، لما أقدم على فعلها، ملهماً من الله وبإذنه، وهو الولي العارف بالله. والسبب العام واضح لا غموض فيه، وهو شدة الحاجة إلى القمح، في سنة جدباء ممحلة، فسواء أكان ذلك مطلباً للأهلين الجائعين، الذين استجاروا به، فلبى الجد توسلاتهم وقدم لهم العطاء الكثير، وبفضل رضاء الله وكرمه، حتى اكتفى القوم بأجمعهم، و لم يتناول أجراً ولا قيمة لما أعطاه الله من فضله، حتى أقدم من حضر من الناس يقبلون أقدامه على ما شوهد من هذه الكرامة العظيمة، قدس سره ..

أم كان السبب استيفاء حقوق السلطان، في مثل تلك السنة، وظلم المماليك وتعسفهم في الجور والضغط على الرعية، فان النتيجة في كرامة الكيل لا تتغير إطلاقاً.

تاريخ وقوع الكرامة

ليس لدي دليل قاطع على تاريخ هذه الكرامة، وأرى أن الاحتمال وارد جداً، في عام 680هـ - 1280م، حينما أرسل ألبغا ابن هولاكو، مملوكه لجمع الأموال تهيئة واستعداداً لتجهيز جيش ترأسه مع أخيه منكو تمر إثر دخولهم حلب. حيث جمعوا العدد والعُدَدَ من الرجال والأموال بالقوة والتسلط والتعسف.

ويحدثنا التاريخ بأن هؤلاء المغول كانوا لا يرحمون أحداً، ففي عام 679هـ كانت واقعة عظيمة، بين التتار، إثر عودتهم إلى حلب، وبين الملك المنصور قلاوون الألفي، وكان على رأس التتار منكوتمر، أخو أبغا، فنهب البلاد وأحرق الضياع وقتل الرعية وآذى البرية، ورجع إلى بلاده. ثم أعادوا الكرة عام 680هـ، ودخل أبغا

ابن هولاكو ومعه أخوه منكوتمر، حلب ثم اتجهوا نحو حمص، وكانت المعركة بين الرستن وجامع خالد ابن الوليد وانكسر التتار [137].

أليست هذه الكرامة العظيمة سبباً في انقاذ أهل قريته، ومن جاورها من القرى المحيطة بها، ودفع العذاب عنهم، بفضل ولاية الجد إسماعيل، قدس سره.

حساب عمر الجد إسماعيل سنة وقوع الكرامة

لقد ارتحل الجد إلى الديار الحلبية، وزار ابن عمه القطب عز الدين أحمد الصياد في قريته (متكين) بعد عام 643هـ -1247م قطعاً، واحتمال ارتحاله ربما كان قبل وفاة أخيه نجم الدين الأخضر، عام 645هـ - 1247م أي كان عمره 72 عاماً. فتكون إقامته في (الترنبا) حوالي 40 عاماً [138].

فإذا كانت كرامة الكيل، على احتمال ما أوردته في التحقيق أعلاه، أي عام 680هـ - 1281م، فيكون عمر الجد إسماعيل 107 سنوات، أي قبل وفاته بخمس سنوات. قدس سره. (رأي شخصي). والله أعلم.

---

[137] أبغا: ابن هولاكو، وترجمه صاحب الدّر المنتخب، والشيخ أحمد الشهير بالملا في المجلد الأول من المختصر. و ألبغا: نائب الملك الظاهر المملوكي. كتبغا: ابن نوين، نائب هولاكو في الشام، وقتل في عين جالوت. و كربغا: صاحب الموصل (أمير الموصل) .
وان جنكيزخان أعقب ابنه تولي خان وهذا أعقب هولاكو، ومات هولاكو عام 664هـ، وجلس مكانه ولده أبغا، ومات هذا عام 680هـ. (عن النجوم الزاهرة للتغري بردي صفحة 348).

[138] القطب عز الدين الصياد: ابن عم جدنا إسماعيل، ولد أحمد الصياد عام 574هـ، في أم عبيدة قبل وفاة جده لأمه الغوث الكبير القطب السيد أحمد الرفاعي بأربع سنين وتفقه على الكثيرين من علماء ذلك الزمان، ثم خرج من العراق عام 622هـ، وحج وأقام بالمدينة المنورة تسع سنين، ثم ذهب ال مصر عام 638هـ، وأقام فيها سنتين ثم طاف اليمن ونزل الشام ودخل دمشق، ثم دخل متكين، وهي من أعمال معرة النعمان عام 643هـ، وعاش فيها 27 عاماً، وتوفي فيها عام 670هـ عن 96 عاماً، ودفن تجاه باب الرواق في قبته. كان كثير الخشوع والحياء من الله تعالى ولم يرفع طرفه إلى السماء قط حياء من الله تعالى، وعظم أمره وسار في الآفاق ذكره وظهرت على يديه كرامات كثيرة. (التنوير للصيادي، صفحة 46-47، عن روح الأكسير صفحة 43) (مخطوط). ومتكن الآن خربة ولم يكن فيها سوى الرواق الصيادي بظاهر خان شيخون من الجهة القبلية، وكانت إذ ذاك قرية جامعة. (البهجة، صفحة 61). إن ارتحال الجد إلى الديار الحلبية، كان بإشارة من أخيه نجم الديـن الأخضر، أما الاستقرار في (الترمبا) فكان بإشارة من ابن عمه عز الدين أحمد الصياد. وربما كانت زيارات وصلات متبادلة بين متكين والترنبا، ولاسيما وأن متكين كانت تحوي صلحاء الصرفية والزهاد. (انظر إذا شئت ترجمته في كتاب النفحة المسكية لعز الدين أحمد الفاروثي الواسطي. صفحة 12 طبع مطبعة محمد أسعد، الاستانة 1301هـ)

حياته الاجتماعية والفكرية

لم يكن الجد إسماعيل مقتصراً على الرياضات الإلهية، وإنما كان له مريدون وتلامذة يأخذون العلم عنه وكان يزوره صدر الدين علي ابن ابن عمه عز الدين أحمد الصياد في (الترنبا)، وكان مشتهراً بعلو الهمة وله المناقب [139] الجمّة وأخذ عليه الجّم الغفير من أكابر حلب، وأعيانها وتلك النواحي، وخَدمهُ الصلحاء وتقصّده الناس من الديار الشامية والأقطار البعيدة.

وقد ألف به وبمناقبه: الشيخ زين الدين الشافعي الخليلي، قاضي حلب، رسالة اسمها: **تحفة الذهب في رحلة الشيخ إسماعيل الكيال الرفاعي إلى حلب.**

ويتضح من عنوان هذه الرسالة أن مؤلفها الخليلي كان كتبها بعد كرامة الكيل لأننا ذكرنا أن شهرته (الرفاعي) قبل كرامة الكيل.

ورغم التحري والبحث الدقيق، لأعوام كثيرة، لم أتوصل إلى هذه الرسالة لأحصل على مضمون ما سطر فيها.

وكان الخليلي من تلاميذ صدر الدين علي ابن السيد أحمد الصياد[140] قبل أن يكون قاضياً، فهل كان يتردد على الترنبا لزيارة القطب إسماعيل جدنا، وهو في

---

[139] المناقب: جمع منقبه، المفخرة، ومناقب الانسان ماعرف به من الخصال الحميدة والأخلاق الجميلة. المنجد، صفحة 950 – وصفحة 33 روح الأكسير.

[140] صدر الدين علي ابن السيد أحمد الصياد، سبط الإمام الرفاعي. ولد سنة 645هـ، وتركه أبوه وله من العمر خمس وعشرون سنة. تلقى الفقه الشافعي عن القاضي عز الدين محمد بن محمد الصائغ، وحضر على العلامة جمال الدين واصل الشافعي الحموي وغيرهما ورجع بعد اتقان العلوم الشرعية إلى رواقه المبارك وانقطع في خلوته في متكين، وتصدر لإرشاد الناس وظهر أمره في الأقطار والأمصار. وكان لا يخرج إلا للصلاة أو للذكر أو لمجلس الوعظ ثم يعود إلى خلوته. وكان وقوراً عظيم الهيبة لا يتمكن الانسان من النظر إلى وجهه الشريف لجلالة قدره، أسمر اللون مشربا بحمرة، عظيم الرأس وسيع الجبهة معتدل القدّ حلو المكالمة لين العريكة حسن الخلق. اجتمعت فيه مكارم الأخلاق. وكان هو المشار إليه في وقته بين أهل القلوب. تخرج بصحبته خلق كثير وقصد الأقطار العدة وأخذ عنه الولي المعمّر الصالح أبو الحسن الواسطي، والولي العارف بالله الشيخ إبراهيم بن أحمد الرقي، والشيخ القاضي زين الدين بن محمد الشافعي الخليلي قاضي حلب وغيرهم وحسده جماعة من العلماء وأنكروا عليه لما وقع منه مرة أو مرتين، أنه خطا في الهواء على رؤوس الناس في حلقة ذكره حال وجده، كما وقع للشيخ العارف عبد القادر الجيلي. واستفتوا من تلميذه القاضي زين الدين عن كرامات الأولياء من خرق العوائد، كالمشي في الهواء وما أشبه ذلك، أحق هي؟ فأجاب بخطه على هذا السؤال بما سنثبته في ترجمته، وتوفي صدر الدين في متكين من أعمال معرة النعمان سنة 695هـ، ودفن محاذياً لأبيه في قبة وعليهما صندوق واحد يشمل القبرين. وله ترجمة عظيمة وشعر وكلام عظيم، نقلاً عن الإمام الوتري، ناقلاً عن صاحب صحاح الأخبار. (التنوير، صفحة 55 -56).

سن الشباب؟ كما هو واضح من ترجمته وأنه كتب رسالته: تحفة الذهب، بعد وفاة جدنا على الأرجح [141]. لأنه تولى القضاء في حلب سنة 700هـ - 1300م. وبقي قاضياً ثلاثا وعشرين سنة، وتوفى سنة 685هـ - 1286م، وعلى هذا فإنه كتب رسالته، وأرخ فيها وفاة جدنا في عام 685هـ - 1286م، بعد عام 700هـ، أي بعد أن تولى منصب القضاء [142]، ومن المؤسف أننا لم نجد هذه الرسالة لدراستها ومعرفة مضمونها وأسبابها ومسبباتها والوقائع التي حدثت فيها ونتائجها.

كما أن أبا الحسن الواسطي، صاحب كتاب روح الإكسير، كان تلميذاً لصدر الدين الصياد، وعاصر الجد إسماعيل وهو من المعمرين، وكتب كتابيه روح الإكسير وعقد اللجين مؤرخاً فيهما الجد إسماعيل، قدس سره [143]. فهل كان الخليلي والشيخ المعمر أبو الحسن الواسطي والشيخ أبو بكر الأنصاري من مريدي وتلامذة الجد إسماعيل؟

---

[141] ترجمة القاضي الخليلي: قاضي حلب، صاحب رسالة (تحفة النحب في رحلة الشيخ إسماعيل الكيالي الرفاعي إلى حلب)، واسمه المجرد عن الكنية والألقاب: عبد الله بن محمد بن عبد القادر بن ناصر. واسمه مع الألقاب: زين الدين أبو محمد عبد الله بن محمد الأنصاري الخزرجي الشافعي. ولي القضاء في حلب سنة 700هـ، واستمر في القضاء ثلاثا وعشرين سنة، وتوفى سنة 724هـ، ودفن بالمقام وبنيت له تربة من ماله ولم يعقب وارثاً. (النهر للغزي، جزء 1 صفحة 297). وسب لقبه بالخليلي: لأن والده وليّ قضاء الشافعية بالقدس الشريف، بلد سيدنا الخليل عليه الصلاة والسلام. واسم والده: شهاب الدين محمد بن عبد القادر بن ناصر الأنصاري الشافعي ويعرف بابن العالمة. ولد سنة 600هـ، وكان من الفضلاء والأدباء والفقهاء، رحل في طلب العلم، ووليّ قضاء بلد سيدنا الخليل عليه الصلاة والسلام. وكانت أمه عالمة كبيرة القدر وتحفظ القرآن وشيئاً من الفقه والخطب، ولولدها أشعار مليحة. روى عنه ولده قاضي القضاة زين الدين قاضي حلب. وتوفي سنة 672هـ (عن كتاب الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، صفحة 121، طبع مكتبة المحتسب - عمان عام 1973م، الجزء الثاني، تحت عنوان: القضاة الشافعية بالقدس الشريف). وجاء ذكر القاضي الخليلي، في الصحيفة 512 في الفقرة 311 من الجزء الرابع من كتاب أعلام النبلاء تاريخ حلب الشهباء، لمؤلفه محمد راغب الطباخ الحلبي، عند الكلام على الحافظ عمر بن حسن بن حبيب المتوفى سنة 726هـ، حيث ذكر الطباخ نسب الحافظ المذكور، وقال في السطر السادس من الصحيفة 512 ما يلي: وقدم حلب صحبة القاضي زين الدين الخليلي الشافعي، بعد سنة 700هـ بقليل وأقام بها. ولم يذكر الطباخ ترجمة للقاضي الخليلي، رغم تتبع جميع أجزاء كتابه أعلام النبلاء (الطبعة الثانية نشر دار القلم العربي، حلب عام 1409هـ -1989م. ولا نعرف السبب بعدم ذكر ترجمة القاضي الخليلي، مع أنه توفى في حلب. وأن الطباخ قد ذكر في مقدمة الجزء الاول من كتابه ما يلي: وقد التزمت ألا أذكر إلا من كانت ولادته في الشهباء، أو كان ممن توفي فيها. (الطباخ، أعلام النبلاء، السطر الاول، صفحة 28، طبعة ثانية .(

فتوى الخليلي عن كرامات الاولياء: كرامات الصالحين حق أؤمن بذلك من قلب صميم، وأعتقده اعتقاداً جازماً بتوفيق الله وهدايته، وهذا هو مذهب أهل السنة، وعليه جماهر الأمة المكرمة سلفاً وخلفاً، ومصنفات الأئمة الاعلام الموثوق بنقلهم المرجوع إلى قولهم مشحونة بذلك. ودلائلهم من الكتاب العزيز والسنة النبوية كثيرة. ومن له صحبة مع القوم يرى من عجائب أحوالهم وغرائب أقوالهم وأفعالهم بحسب استعداده ما يثلج سوائد فوائده. ولقد من الله عليّ بصحية بعضهم، فعاينت من الكرامات في أقواله وأفعاله شيئاً كثيراً، مع فرط قصوري وبعدي عن هذا المقام. فيا خيبة منكر ذلك، ويا بعده عن قصد المسالك، وأنى يرى ضوء الشمس فاقد البصر، أو يشاهد الأعشى نور القمر، فما في صلاح منكر ذلك مطمع، فليصوّر نفسه، بين يديه، وليكبر عليه أربع. (التنوير صفحة 55-56).

[142] نهر الذهب، للغزي، جزء 1 صفحة 297.

[143] التنوير صفحة 44.

مناقبه

مناقبه كثيرة جداً، ونورد بعضها. قال صاحب روح الإكسير:

أنه مر على قرية من قرى الموصل ومعه أحد تلامذته، فأرسله ليشتري طعاماً من القرية، فصارت الاولاد تضربه بالحجارة، فمنعوه من المرور والدخول للقرية فالتفت إلى جهة الشيخ وأنشد قائلاً:

أتمنعي الصغار وأنت فينا مربّ للكبير وللصغير
وتأتيك البشائر كل وقت بهمة جدك الغوث الكبير

فألقى الله محبته في قلوبهم، فسأله كبيرهم: ما حاجتك، فقال له على مراده فذهب وآتاه بطعام بلا ثمن.

ومنها أنه كان من عادته أن ينفخ على العسل ويسقيه لمن أراد الشرب. فأتاه يوماً بعض الغرباء، ليشرب منه، ونفسه تأبى العسل، ففهم الشيخ منه ذلك، فأمر بماء في قدح بيده، فأتى الرجل بالماء فنفخ عليه وسقاه له، فوجده عسلاً لذيذ الطعم، لا يشبه طعم العسل الموجود. وصارت نفسه تقبل العسل ببركة سيدنا، قدس سره.

ومنها ركوب الجدار حالة ولَّهه والمشي به، وهي قصة مشهورة، حينما اختلف اثنان من أهالي قريته على حدود أرض يدعى كل منهما بأن الآخر تجاوز على حد أرضه دون حق. وكاد الجدل بينهما يؤدي إلى عواقب وخيمة، وقبل الطرفان بحكم سيدنا الشيخ، فركب على جدار داره، ومشى به الجدار بين حدّي أرض المتخاصمين، فقبلا بحكمه دون جدال، قدس سره.

ومنها معافاة للمرضى والزمنى على يديه. واعتقاد الناس به مما يطول شرحه[144].



[144] بهجة الحضرتين، صفحة 18 عن روح الإكسير صفحة 37.

ثبت المصادر

1. بهجة الحضرتين - لأبي الهدى الصيادي، والحاشية للشيخ كامل الكيالي الإدلبي.
2. تنوير الأبصار - لأبي الهدى الصيادي.
3. الفريدة الدرية - الشيخ طاهر الملاّ الكيالي.
4. الرسالة القشيرية - للقشيري.
5. مقدمة ابن خلدون.
6. لطائف المنن - ابن عطاء الله الاسكندري.
7. الشاذلي – د. عبد الحليم محمود.
8. اللُمع في التصوف - السراج الطوسي.
9. منزلة العدد 7 في الفكر العربي - د. عمر الدقاق.
10. نهج الاسلام - وزارة الأوقاف السورية.
11. تفسير القرآن - الشيخ متولي شعراوي.
12. نور الابصار - الشيخ مؤمن الشبنلجي.
13. ابن الفارض - محمد مصطفى حلمي.
14. روح الإكسير - أبي الحسن الواسطي.
15. مشكاة الأنوار - للغزالي.
16. نهر الذهب - الشيخ كامل الغزي.
17. أعلام النبلاء - الشيخ راغب الطباخ.
18. موسوعة حلب المقارنة - خير الدين الأسدي.
19. النجوم الزاهرة - للتغري بردى.

20. أسماء حلب السريانية - المطران جرجس شلحت.
21. مجاني الادب - لويس شيخو اليسوعي.
22. زبدة كشف المماليك - خليل بن شاهين الظاهري.
23. الرحالة في محافظة ادلب - فائز قوصرة.
24. رحلة ابن بطوطة.
25. الخط الكوفي المُوّرق في معالم حلب الأثرية - كامل فارس.
26. الوثائق السياسية - د. ماهر حمادة.
27. محافظة حلب - د. عبد الرحمن حميدة.
28. مختصر الدول - أبو الفرج الملطي.
29. صبح الاعشى للقلقشندي.
30. خانات حلب – دعد حكيم.
31. الوصية - لابن خزيمة.
32. الحلة السنية للرحلة الشامية - محمد بن عمر الكيالي.
33. النفحة المسكية - عز الدين الفاروثي الواسطي.
34. عقود اللآلي - لأبي بكر الانصاري.
35. الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل - مجير الدين الحنبلي.
36. تاج العروس - مرتضى الزبيدي.
37. لسان العرب - لابن منظور.
38. منجد الطلاب - معلوف اليسوعي.
39. معجم لاروس الفرنسي.
40. موسوعة المليون الجغرافية العالمية.

كتب ورسائل مؤلفة في كرامات الأولياء

1. الآيات البينات في إثبات كرامات الأولياء في الحياة وبعد الممات. للعلامة أحمد الأنصاري البرلسي المالكي.
2. نفحات القرب والاتصال بإثبات التصرف لأولياء الله تعالى والكرامة بعد الانتقال. للسيد أحمد الحموي الحنفي.
3. زوال الاشكال بثبوت كرامات الأولياء بعد الانتقال. للعلامة عبد المعطي السملاوي الشافعي.
4. القول الجلّي في تصرف الولي. للعلامة السندوبي الشافعي.
5. كتاب كرامات الأولياء. للعلامة أحمد بن إبراهيم العجمي الشافعي.
6. تنبيه الأذكياء في مناقب الأولياء، وما خصهم الله تعالى به من الكرامات حال الحياة وبعد الممات. للعلامة أحمد المنصور الحنفي الجندي.
7. تنبيه الأذكياء على كرامات الأولياء. للعلامة أبي العباس أحمد بن جعفر الرومي، الواعظ بالمسجد الحرام.
8. كتاب السيوف الصقال في منكر كرامات الأولياء بعد الانتقال. للعلامة عبد الباقي المقدسي الحنفي.
9. كتاب مزيل الشبهات في إثبات الكرامات. للعماد بن باطش.
10. رسالة الماء الزلال في إثبات كرامات الأولياء بعد الانتقال. للعلامة الشريف محمد البليدي المالكي.

(عن كتاب طي السجل - للرواس - تحقيق عبد الحكيم عبد الباسط السقباني الدمشقي. صفحة 280 – 281، الطبعة الأولى 1319هـ).

11. جامع كرامات الأولياء - للشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني - دار صادر - بيروت ولم يذكر فيه تاريخ الطباعة ولا النشر. ويشتمل على العديد من الأولياء أصحاب الكرامات.

